

بَعَثُ الْمُؤْمِيَاءِ

رواية

حسيبة طاهر جفيم

٢٠١٧

الناشر



www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصوري

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ - ٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

إهداء

إلى أولئك الذين لم يسبقَ أن أهداهم أحد كتاباً...
إلى أولئك الذين وجدوا على هذا التوكب فقط ليتعذبوا،
ويتألموا، ويجوعوا ويعطشوا، ويشقوا، ويهمشوا، ويستعبدوا...
إلى الفقراء والمعوقين والأيتام... إلى الأراذل والمطلقات والعوانس...
إلى من يعانون ألماً نفسياً أو اضطراباً عقلياً في عالم لا يرحم.
إليكم، وإليكم وحدكم دون سواكم أهدى كتابي، بغض النظر
عن إيمانكم، إلهادكم، دينكم، عرقكم أو أصلكم...
تمنيت أن أهديتكم شيئاً يفيدكم،
لكن للأسف ما أكثركم، وما أقل حيلتي ...

خَرَجْتُ «فردوس»، متوجسة تشعر بالرهبة وهي تغادر
مطار مونتريال... كان الجو شديد البرودة والبياض يلف
المدينة...

ظلت تبحث عن سيارة عَمَّهَا «الدودتش الفضية»-
كما وصفها لها- لكنها وجدت السيارات كلها متشابهة،
إلى رآته يُلَوِّح لها قاطعًا الطريق صوبها، فأسرعت إليه
مهرولة، وفجأة زلّت قدماها وكادت تسقط أرضًا...

ما هذا الشؤم!؟!

وقوع وِزْلَةٍ من أول خطوة تخطوها على أرض كريستوفر/
مُكْتَشِفِ العالم الجديد!

صافحها عمها بينما كانت تتوقع أن يأخذها
بالأحضان، لكن يبدو أن عواطف الشرق الملتهبة تتجمّد
تحت طبقات الجليد الكندي.

صعدت السيارة الضخمة بستة مقاعد خلفية،
كل مقعد مجهز بمسند يد ومكان لوضع المشروبات

والطعام، فالكنديون يحبون الأكل داخل السيارات لأنهم يسافرون لساعات طويلة...

قال لها عمها ذلك... ثم أخذ يسألها أسئلة كلاسيكية عن أحوال العائلة وكيف كانت رحلتها، ثم استطردهم معذرا عن عدم حضور زوجته لاستقبالها، قائلا:

- الطفلان ينامان مبكرًا، و «مادلين» لا تحب التشويش على روتين حياتها اليومي.

- لا بأس قالت... ثم حكى له عن الكلب الذي التصق بها داخل المطار وهي تحاول الابتعاد عنه، إلى أن جاءت الشرطة وقالت لها:

- أنت تحملين فواكه؟... ووضعت الشرطة حبة حلوى في فم الكلب مكافأة له... بينما ظنت فردوس أن تلك الشرطة تقرأ الغيب، إذ قبل أن تفتشها أخبرتها أنها تحمل فواكه، وأضطرت لدفع مئتي دولار كغرامة ومصادرة التين المجفف والبلح الذي أحضرته هدية لعمها الذي انفجر عمها ضاحكًا وقال:

- الكلاب البوليسية المدربة تتمتع بحاسة شم متطورة، مهمتها البحث عن الطعام داخل الأمتعة خصوصا الفواكه والأجبان ... لذلك تمنع السلطات هنا دخول الفواكه خوفا من انتقال عدوى طفيلية أو أمراض تصيب نباتاتها وأشجارها ...

قطعا شوارع المدينة، فضلت فردوس تتفرج على ناطحات السحاب والأضواء التي تزيّن الشوارع والبيوت بمناسبة أعياد الكريسماس، فأعجبها منظر «السنّان ورن» المتجمّد والماء المنهمر من أسقف المباني والعمارات الذي تجمد، كأن ساحرة حولته إلى قطع زجاج لامعة بلمسة عصا. وأغنية جميلة وهادئة تبعث من أعمدة الإضاءة بالشارع تقول:

Vive le vent
Sur le long chemin
Tout blanc de neige blanche
Un vieux monsieur s'avance
Avec sa canne dans la main

Et tout là-haut le vent
Qui siffle dans les branches
Lui souffle la romance
Qu'il chantait petit enfant
Refrain
Vive le vent, vive le vent,
Vive le vent d'hiver
Qui s'en va sifflant, soufflant
Dans les grands sapins verts.
Vive le temps, vive le temps,
Vive le temps d'hiver
Boules de neige et jour de l'an
Et bonne année grand-mère.

على الطريق الطويل

كل شيء أبيض من بياض الثلج

رجل عجوز يتقدم

بعصى في يده

وفي الأعلى الريح تصفر على الأغصان

تغني الأغنية الرومانسية التي يرددتها الأطفال

تحيا الرياح... تحيا الرياح

تحيا رياح الشتاء

التي تمضي تصفر وتنفخ

على أشجار الصنوبر الخضراء الكبيرة

كرات الثلج... رأس السنة

عام سعيد جدتي...

فوجئت فردوس بأن بيت عمها رغم جماله وأناقته كان
أصغر مما ظنته، صالون بتلفاز بحجم الجدار... أريكتان
من الجلد الإيطالي الرفيع... طاولة زجاجية عليها تحفة

- عندما تكون غريبا وضييفا بيت غير بيتك، فإن المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالراحة والحرية هو الحمام!

جلست على الطاولة تتأمل أصنافا لأول مرة ستذوقها قدمها لها عمها، شربة الفطروالقرع، سلطة تفاح وأفوكا وجمبري، سلمون مشوي بصلصة شراب القيقب، أجبان ومقرمشات، كعكة الجبن... لكنها لم تتمكن من أكل شيء لشعورها بالإرهاق ولأكلها وجبة بالطائرة، وإحراجها بسبب عدم استقبال زوجة عمها لها.

فتح عمها غرفة الطفلين وأخبر فردوس أنها ستنام في سرير «داني» الذي سينام بدوره بجانب أخيه، لكنه تفاجأ بأن الطفل في سريره . وهنا فقط خرجت مادلين، ملامحها أوروبية وبشرتها برونزية لكنها لبنانية الأصل، وقالت لفردوس:

- أهلين... ستنامين في الصالون ياعزيزتي، آسفة ولكن الولد رفض التخلي عن سريره خصوصا أنك ستقيمين هنا وليس ليوم أو يومين، ثن عادت لغرفتها تتشاءب ...

تمنت فردوس لو ماتت قبل أن تتعرض لمثل هذا
الازدراء والاحتقار من زوجة عمها التي نظرت إليها كأنها
مخلوق سخيف غريب الأطوار أتى من كوكب آخر أو
زمن آخر ...

في اليوم التالي، أخبرت عمها أنها تريد الإقامة في شقة
مشتركة مخصصة لطلبة، فرحب بالفكرة دون أدنى ممانعة
أو مجاملة، فالعرب عادة يراوغون في أشياء كثيرة أهمها
التظاهر بترحيبهم بالضيف على الرغم من تضاييقهم منه،
ومراوغتهم في الحديث عن الجنس إذ يستعملون الرمزية
بدل الحديث الصريح، والمراوغة في الصحة والمرض،
فيوهمونك أنك بخير حتى لو تيقنوا أنك تحتضر ظنا منهم
ربما أن نطق الحقيقة يعجل بوقوعها...

أما عمها فتغيرت طباعه، خصوصا أن مادلين هي
الأمر الناهي له، فيتصرف حسب ما يرضيها ولا يقول
إلا ما يروقها، ولكثرة طاعته لها يتصرف على النحو
نفسه في حضورها وغياها، إذ يتهاى له أنها تسمعه...

وهكذا خانت فردوس عهد والدها حمدان الذي وافق
على سفرها كمكافئة لتفوقها الدراسي مشروطاً عليها
الإقامة عند عمها، وإلا كيف كان سيوافق وهو الرجل
الشهم الأصيل على أن تقيم ابنته وحيدة بلا محرم وفي
بلد غريب...

والحقيقة أن حمدان كان أكثر من ابنته فردوس تطلعا
لسفرها وإكمال دراستها، إذ لم يرزق بذكر وكانت هي
أكبر البنات، فتمنى أن تكون ناجحة ومتفوقة مثل
عمها...



جلست تلملم سعادتها المكسورة على عتبة
الزمن فانجرحت أناملها وما لملت شيئا.. تناثرت
أحلامها قطرات عطر فطارت.. كانت ترشف قهوة
حالك سوادها كالليل المخيم على المدينة.. ساعتها
المصلوبة على الجدار بذنب البشرية، تئن مصدرة
صوتا يوحى بالوحشة والرهبة والسكون والملل
والعدم والفراغ.. كم انتظرت ذلك الزائر الذي
ذهب ولم يعد.. ذلك الذي رسم لها لوحة يتيمة
ذات غرام ولم يلونها، وظلت تعيش على أمل لقائه
ذات قدر.. الغرفة باردة، والجو ماطر..

جاءت هذه المدينة بأحلام كبيرة، وها هي
ستغادر بأحزان بحجم عمر، فهل ما يزال في عمرها
متسع لبعض الفرح؟!

تهاطلت عليها اللكمات والصفعات والكوارث..
تلاطمت أمواجها وكبرت أحزانها وأثقلت الهموم
كاهلها.. أهى تعويذة الساحرة في عيد (الهالوين) قد
سخطتها؟ أم لعنة الفراعنة لاحقتها إلى هنا؟ أم هي
دعوة شر من الدعوات التي كانت تجود بها قريحة

جدتها «ستيتة».. تلك العجوز الدجالة الذميمة
بأسنان طويلة كأنها كائن مُسخ عن قرد أو فأر والتي
كانت ترعب كل أطفال القرية ما عداها، فقد كانت
تنام في حضنها، وتتشي بدفتها وحنانها.. كانت جدتها
وكأنها بشخصيتين مختلفتين؛ في النهار عجوز شمطاء
دجالة تدعي التنجيم للارتزاق من جيوب الأغبياء
الذين كانوا يظنون أنهم إن لم يرضوها ستسخطهم
وتسلط عليهم لعنة غضبها وأصدقائها من الجان
فيحدث لهم مكروه، وفي الليل جدة حنون تأخذ
حفيدتها في حضنها و تنام معوضة بذلك الحنان الذي
افتقدته من يوم موت زوجها وهي لم تتجاوز آنذاك
الثلاثين من العمر..

...الله يرحمك يا جدتي، ويرحم أيامك!!

هي التي جاءت من القاهرة حاملة بشهادة
كبيرة ووظيفة.. وربما بإقامة دائمة بكندا، لكن
جرت الرياح عكس شراعتها، وكادت تغرق السفينة
وتشردت نوارسها، ولم تجد لها برًا تقف عليه
بعدما كُسر شراعها، وتطايرت شظاياها لتستقر في قعر
المحيط البارد المظلم.. تُسبح عسى من يسمعها
ويعيدها لليابسة ثانية..

اكثر شقة صغيرة شراكة مع فتاة تونسية بحبي
(الكوت دي ناج) القريب من جامعة مونتريال..
ظلت تجاهد الحياة من أجل تلك الشهادة.. عمل
بالليل، و دراسة بالنهار.. عملت في كل شيء: البيوت
و المطاعم ومرافقة المرضى و حتى حارسة كلاب
وقطط.. إلى أن تعرفت إليه عن طريق صديقتها
«سهير».. كان شابا تونسيا حاصلا على الجنسية
الكندية، ومالكا لمطعم «بيتزا».. ميسور الحال..
أحبته وأحبها (أو هكذا كانت تظن!)، تعارفا..
تعاشقا.. بدأت تتغيب عن محاضراتها.. حتى عن
امتحاناتها.. باءت سنتها الدراسية بالفشل، لكنه
وعدها بالزواج، وكان يوسوس لها كالشيطان بأن
تترك الدراسة وتعمل معه بالبيزيريا، ويجمعها مالا
وفيرا الشراء منزل بطابقين يقيماني في الطابق العلوي
منه، والطابق السفلي تفتحه حضانة صغيرة بعد أن
تحصل على شهادة (الخمس وأربعون ساعة في
الطفولة الصغيرة)..

اشتعلت الأحلام في رأسها.. اتصلت تخبر
عائلتها بأنها ستزوج.. لظمت أمها وبكى أبوها،
لكنها صممت وما شاءت فعلت.

تزوجته بفاتحة تلاها إمام المسجد بلا عقد ولا
سواه، انتقلت للعيش معه.. فتحت الحضانة، كانت
تعمل ليل نهار وحتى يومي السبت والأحد.. جمعا
ثروة هائلة من البيزيريا والحضانة.. كل شيء كان
باسمه بحجة أنها لا تملك بعد وثائق إقامة رسمية.



كان يعد حقايبه للسفر وهي تبكي:

-لِمَ لا تأخذني معك؟

-حييتي هل جنتت؟ لو خرجت من كندا لن
يسمحوا لك بالدخول ثانية..! ما كل هذه الدموع؟
أذهاب أنا إلى الحرب؟ إنها مجرد أيام وأعود!

تباطل المطر الأسود من عينيها ولم يتوقف..
لم تصلها منه أخبار؛ لا تلفون ولا «سكايب» ولا
«فايس»، حتى فوجئت ذات صباح بالسمسار المكلف
بيع البيت يطالبها بالإخلاء..!

عرفت أن البيزيريا قد بيعت، وأنه قد أخذ كل
الرصيد من حسابها المشترك.. ماذا ستفعل؟ وإلى
أين ستذهب؟ لا حقوق لها.. لا ملجأ.. لا مأوى.. لا
شيء إلا الشارع والضياع!

جلست على حافة (السان لورون) تندب حظها
وعمرها.. نظرت مليا إلى النهر الراكد، وألقت
بنفسها فيه علَّ حضنه يكون أكثر دفءً، وأكثر رحابة
من حضن الحياة..

فتحت عينيها فإذا بها محاطة بالأزرق⁽¹⁾، أكيد أنها ليست في جهنم، لكن هل هي في الجنة؟ هل هؤلاء ملائكة؟ هل تتكلم الملائكة لغة البشر؟ وهل هي مزدوجة اللغة (فرنسي/ إنجليزي)؟ ثم فهمت أنهم أنقذوا حياتها وأنها بخير لكن عليها الإقامة في مصح للأمراض العقلية حتى تعقل، لأن الانتحار مرض عقلي في الصحة الكندية .

-لست مجنونة.. لست مجنونة..! اتركوني أخرج من هذا المكان اللعين..!

قال لها الطبيب بنبرة صارمة :

-أجل لست مجنونة لأن الجنون كلمة لا وجود لها في قاموس المصطلحات العلمية، ولكنك مختلة عقليا، وفاقدة للأهلية، وفاقدة لقدرة السيطرة على جهازك العصبي، ولست أمينة على حياتك.. وقد تمثلين خطرا على غيرك أيضا..

قالت الممرضة بصوت فيه شيء من التعاطف:

-إذا كنت يا عزيزتي تريدن الخروج من هنا بسلام فعليك اتباع النصائح، وحاولي أن تكوني

(1) موظفو الصحة في كندا مأزرهم زرقاء.

متزنة، وهادئة حتى تستقر حالتك العقلية ..

إنهم يقولون حالة عقلية مرة أخرى!.. هل
أنقذوها من الموت ليتهموها بالجنون..؟ كان الموت
أرحم لها إذن!

قضت في المصح ستة أشهر عجاف من الاكتئاب
والقلق والملل والوحدة.. لم تكن تدري أن الاكتئاب
معاناة جسدية أيضا، كما هي عقلية ونفسية.. صداع
مستمر.. ألم أسنان.. غثيان.. قيء.. تتمل في
أطرافها.. آلام في الصدر والقلب.. ضيق في النفس..
اختناق.. نوبات بكاء.. أكل بلا شهية.. نوم بمنوم..
كوابيس بشعة.. عقدة ذنب من محاولة الانتحار،
خوف من المجهول.. خوف حتى من أعراض
الخوف.. القلق من القلق نفسه.. إحساس بالحزن
الدائم.. شعور بالوحدة.. أفكار غريبة.. عدم قدرة
على التركيز.. فقدان الشهية لكل شيء.. الخوف
من الموت المفاجئ مع عدم الرغبة في الحياة.. آلام
في الرأس.. طنين في الأذنين.. رؤيا مضطربة.. آلام في
المفاصل.. آلام في البطن.. إسهال.. معاناة وصلت
بها لحد القلق الوجودي اللامتناهي..

عندما تفقد القدرة على كل شيء، والرغبة في

أي شيء، وتصبح راغبا عن أي شيء لأنك فقدت الثقة بكل الناس المقربين قبل الأبعدين.. لأنك تتوجس خطرا ما، أو فاجعة غير منتظرة.. عندما يصبح البقاء لا يعينك.. بل لا يغريك، والموت يرعبك ولا يرضيك، فأنت ترفض الموت وترفض الحياة.. بل تتمنى لو أنك لم توجد أصلا.. لكنك لا تحب العدم، ولا تحب الموت.. لأن الموت عذاب أو عدم، وأنت لا تحب الحالتين.. ما يكون الحل في حالتك؟ ولم تسأل؟ وأنت أصلا عاجز عن الاختيار بعدم قدرتك على أخذ القرار، وعدم قدرتك على تنفيذه، فليس لك إلا الانتظار، وحتى هذه الهواجس والتساؤلات التي تجتاحك رغما عنك، فأنت مذنب بسببها.. لكن؛ كيف تكون مذنبا وأنت لم تختار؟ كيف تكون مذنبا وأنت ضحية هذه الأفكار التي تخترق فكرك وتتربع في عقلك وتعبث بقناعاتك ومعتقداتك وتجعلك تحتار..؟!!



استغلت وجودها في المصح لتعيش لكتابها على
أكمل وجه وبإتقان لأعراضه، دون محاولة إخفاء
أو كتم أو كبت أي عارض من الأعراض.. مصرح
الجنون والأعقل، فلتتمسرح! وساعدها الناشط
الاجتماعي لتمديد إقامتها والحصول على رخصة
عمل..

-أرأيت عندما تحكمت في أعصابك كيف تمكنت
من السيطرة على دماغك، وزالت جل الأعراض
التي كنت تعانيين منها؟ هيا أبشري! فقد مضى
الطبيب على عطلتك⁽¹⁾، غدا عطلتك، وستغادرين،
وسأشتاق لك صديقتي (فاغدوز)

لم تشعر إلا وهي ترتمي في حضن الممرضة
الشقراء باكية:

-شكرا.. شكرا لك.. أنت ملاك.. ملاك..

-هدئي من روعك عزيزتي، فالانفعال لا يليق
بحالتك!

(1) في كندا يقولون عطلة عن الخروج من المستشفى

خرجت من المصح .. عادت للحياة .. للشقاء ..
للبنوس، للأفئعة والمشاركة في الكرنفال البشري
الدائم. عادت للدراسة، وعملت كموزعة للجرائد
المجانية بمحطة الميترو بأجر زهيد، حيث كان يمد
لها يده كل صباح ليأخذ الجريدة، ويبتسم لها قائلاً:
- أنت جميلة !.

في إحدى الصباحات قال لها:

- أنا رسّام .. وكم أتمنى أن أرسمك .. أأديك
مانع أيتها العربية الجميلة؟؟

قالت بلغة فرنسية مكسرة :

-كيف عرفت أنني عربية؟!

-وهل هذه العيون وهذا السمار تمتلكه غير
العربيات؟؟

استطردت قائلة:

-ثم أنا لا أأجد الفرنسية .. أنا أتألم إنأليزي
وعربي

قال :

-سأألمك بأية لغة شئت، وسأألم العربية
لأألمك يا كليوباترا،

ترددت كثيرا.. هل تخوض المغامرة وتذهب؟
فهو يعجبها ويشيرها.. وماذا لو كان شاذاً، أو مجرماً
أو..؟ لا.. لا لن تفعل..! بلى.. بلى ستفعل..!

ذهبت مقررة أن تضع قلبها في حقيبة يدها وتعطيه
مخدراً، وتعطي عقلها منشطاً قوياً حتى يظل واعياً
وحارساً لا يغفو، فعادت بعقل يحترق وقلب
يضيق بما يحمل.. لقد سحرها.. بهرها.. خدّرها..
أسكرها.. لقد أدمته والسلام!

أصبح سلواها ومأواها ومنتهى مناهها، تكررت
المواعيد وازادت التناهي، ولكن ما كان يستغربه
كيف برغم كل ما تعانیه من الجوى والحب لا
تسمح له بلمسها أو تقييلها.. لم تكبت مشاعرها
ورغباتها وتولي ظهرها لأحاسيسها؟ وما المهم؛
الحب الصادق والوفاء، أم تلك الوثيقة؟! لكنه بقدر
عدم قدرته على فهم واستيعاب معتقداتها بقدر ما
كان يحترم تعنفها وصرامتها.. جميلة هي كالتمر..
كالعسل.. صارمة متحفزة للدفاع عن خصوصياتها
كاللبؤة.. تحترم أباهها وهو لا يراها، وتخاف ربهها
وهي لا تراه.. ما أروعها من أميرة شرقية ساحرة...!
أحس أنه ما عاد قادراً أن يحيا بدونها.. أنها قد

غدت هواءه وماءه وكل حياته.. فقرر أن يمضي
ويفاجئها بالقرار الحاسم.

-فلنتزوج حالا!

كان يظن أنها ستطير فرحاً، وسترتمي في حضنه
وتلتهمه قبلاً، وقد تنزع ملابسها وتقدم نفسها له
هدية طال انتظارها.. فأكهة آن قطفها.. لكنها طأطأت
رأسها، وقالت بصوت فيه أمل مغلف بياس وموشح
بشجن:

-لا يمكنني أن أتزوجك.. إلا إذا..

-إلا إذا ماذا؟؟

-إلا إذا دخلت في الإسلام...

-ماذا؟ أدخل في الإسلام؟؟ إذا كنت قد خرجت
من دين أجدادي كيف تريدني أن أدخل في دينك؟!
سخيف.. ثم أنا لا أفهم لماذا؟ لن أمنعك عن
ممارسة شعائرك، سأكل اللحم الحلال مثلك،
سأحتفل بأعيادك.. ماذا تريدني أكثر من ذلك؟!

-لأن ديني يحرم عليّ الزواج من غير المسلم.

-دين عنصري.. ترفضين الزواج مني حتى لو
عرفت من أنا؟ أنا ابن المليونير الكبير «ماتيس
ثخومبلاي»، أبي يملك جزرا وبيوتا ومصانعا
ونحن أربعة إخوة سنقتسم كل إرثه بعد موته، ولا
أظنه سيعيش طويلا لأنه مصاب بسرطان اللسان
والحنجرة..

ورمى هويته بوجهها.....

-غريب أنت! أطال الله عمر أليك.. ثم أنا لن
أبيع ديني ومعتقداتي حتى لو كنت ابن (بيل غيتس)
نفسه.

-وأنا قد مللت منك، ومن هذه المسرحية
المتناقضة المشاهد/ الداكنة الألوان؛ ممارسة الحب
ممنوعة بلا زواج، الزواج ممنوع بلا دين، الرسم لا
يتجاوز الرقبة، لا سهر.. لا رقص.. لا.. تبحثين عن
التعاسة فليكن لك ما تريدين، سأرحل.. لن تري
وجهي بعد اليوم! ولا تحاولي البحث عني، فما
تعودت استرجاع أشياء رميتها في المزبلة مهما كانت
ثمينة.

غادر هو، وظلت هي وحيدة ساهمة كالصنم،
غرفتها باردة رغم كون (الثيرموستا) على الحائط

تشير إلى اثنين وعشرين درجة، فالإحساس بالعوامل الخارجية يأتي من داخلنا، وتفاعلنا معها يكون خاضعا لمعنوياتنا وحالتنا النفسية، فقد نشعر بالدفء في عز البرد، وقد نشعر بالبرد والرجفة والصقيع في عز الحر، وقد نلتهم الطعام بنهم دون شهية ودون أن نشبع، وقد نحس بالشبع لمجرد رؤية عزيز أو حبيب طال غيابه عنا.. وقد لا ننام ولا نشعر بالتعب، وقد ننام وننهض لنعود للنوم ثانية، وقد.. وقد...

حزينة هي حزن هذه المدينة الغربية عنها، تبعثرت أشياءها في دروب زمانها، وحقائبها كسرت على بائها.. يسحقها الزمن الثقيل هنا الموحش وحشة وحدتها.. وجهها الشاحب اللون يصيبها بالاكئاب، وغياب ضوء الشمس يصيبها بهشاشة الإحساس، وبرودها يجمد مشاعرها كتجمد الماء في البحيرات.. كل شيء هنا مجمد إلى حين.. إلى حين ماذا؟ لا تدري!

هنا الهواء مجمد.. الأطعمة مجمدة: الخضضر والفواكه، الخبز والحلويات، حتى الأسماك مجمدة.. الشعور مجمد الحب والفرح وحتى الحزن مجمد! الدمع في الأحداق مجمد.. فراغ لا نهاية له.. سكوت

شديد الذبذبات.. لا طير.. لا فراش.. لا بشر!

لو تسألها عن شعورها الآن ستقول مُنعدم..
ليست حزينة ولا سعيدة.. ليست غاضبة ولا
راضية.. إحساسها مُنعدم وغير طاف.. أصبحت
تحس أنه لا فرق بينها وبين تلك السمكة داخل
الحوض الزجاجي؛ ترى كل شيء دون أن تلمس..
يبهرها ما هو خارج أسوارها الزجاجية، لكنها لو
غادرته ستختنق تموت.. فتكتفي بالأكل والنوم..
وإن ملت تدور داخل الحوض، وتعود دوما لنفس
نقطة انطلاقها..

كثيرا ما تضعك الحياة في مواقف اختيار صعبة،
فتضطر للتضحية بشيء في سبيل الآخر تماما كحكاية
«مارينا» عروس البحر التي أرادت أن تحصل على
رجلين، ففقدت صوتها، وكم كان صعبا اختيارها:
الدين من ورائها، والحب والحياة من أمامها..!

أحست بغربة عن كل شيء، حتى عن ذاتها.
أحست بالوحدة والسكون والأشياء؛ لا صوت..
لا وجود غير طقطقة حبات البَرَد المصطدمة بزجاج
النافذة، فهل كان الأمر صدفة أم تعمد البرد التحرش
بها لأنه يعلم أنها غريبة في هذه المدينة، ووحيدة..



كانت الريح تصفر كأنها تنذر بالفناء، واختلطت
أصواتها بأصوات أجراس الكنيسة معلنة أن روحا قد
فارقت القفص الذي حبست فيه إلى آفاق أخرى
وأبعاد كونية وزمانية أخرى...

مررت أصابعها على القيثارة العتيقة المشروخة
المصنوعة من عظام الأموات.. تعزف لحن الفراق
الحزين.. سنفونية آخر حب يبهر للبعيد إلى
اللأعودة.. كانت الضربة عنيفة قطعت كل الأوتار،
وقطعت إبهامها، فانفجرت شرايينها.. أصبحت
الأشياء باهتة يلفها الضباب، هلامية تسبح في عالم
من فوضى هندسة الفضاء الافتراضية حيث اللاألون
واللأشكل.. حيث يسكن المكان الزمان، ويأخذ
الزمان ملامح المكان.. أصبحت مخلوقا بلا ملامح
تعيش عمى الألوان، وفوضى الحواس، واختلاط
الذبذبات الصوتية، فلم تعد تفرق بين ضحك
ونحيب، أو نواح.. كانت تحاول عزف الحياة من
الفناء، وتأبين الفناء بالحياة، ورسم جدارية بألوان
الموت.. تعيش موتها على صفحات الكتب القديمة

وترسم وجهها بين سطورها وفلسفتها.. أعدت
تابوتها وجهزت نعشها واحتفت وحدها بالصيوان..
كانت الجثة والمعزّي والمعزّي.. كانت المنتحب
والنحيب..

إحساسها قديم قد عاشته عند بداية الخلق..
عاشته في العمى وما قبل العمى بقليل.. ويشهد عليه
إله الحب والطوطم.. إحساس بطعم العلقم.. مذاق
يرسخ في الذاكرة لن تنزعه شوكلاتة «الكيت-كات»
التي كانت تلتهمها بلا شهية فقط لتغسل عن روحها
ذلك الطعم الذي لا يمحي!

تمنت لو عادت طفلة من جديد بصفيرتين
وفستان زهري ووشاح بشكل فراشة.. تجري في
المروج والغيطان.. تجمع الأزهار البرية وتقضم
قصب السكر تحت الشمس الساطعة فوق رأس
أبو الهول.. فتاة الشمس هي، وحفيدة الفرعون..
تمنت لو غطست في النيل العظيم الخالد، واغتسلت
كي تتطهر من الذنوب والخطايا والحب والذاكرة،
فتخرج منه طفلة نحيلة الجسم داكنة اللون بقلب
صاف ونقي.. لكن أين هي من النيل، وهي لا تملك
حتى ثمن تذكرة العودة؟ فلا عودة..

هي ابنة الشمس، حفيدة الفرعون .. هي سليلة
كليوباترا وشجرة الدر، فقد لقت طاقة من
بنوا الأهرام وقهروا الغزاة.. لن تهزم! ستقف..
ستواصل.. ستحيا وسط الشوك وتمشي فوق
الزجاج المنشور، وتمخر عباب الصعاب، وتخوض
حروب «الغوريالات» السوداء حتى تحصل مرادها،
وتستقر حياتها ذات سخاء من القدر، أو غفوة من
ذلك المارد الملعون الذي يسلط عليها لعنة سحرية
لا تزيلها الرقى.. تشل كل خير آت وتمسحه حجارة
من سجيل تتساقط في سيناء أحزائها، فتضرم النيران
في أحشائها وروحها وتغير اتجاه مصيرها..!

لن تقع في شرك الاكتئاب مرة أخرى.. لن
تدخل المصح وتعامل كمجنونة.. لن يحدث هذا..
لن يحدث هذا أبدا..



كانت تتجول في شوارع مدينة مونتريال لا تلوي
على شيء فقط لقتل الوقت .. دائما نبحث عن
وسيلة لتمرير الوقت وقتله كأن هناك نقطة وصول ما
إذا وصلناها ارتحنا.. إلى أين نريد الوصول يا ترى؟
إلى الموت؟ أكيد! فالموت هو الحقيقة الوحيدة في
الوجود.. لماذا هي تتحرش بالموت؟ أتراها فكرة
الانتحار عاودت مرادتها؟

انقطع حبل أفكارها عندما رأت دكانا صغيرا
للتحف، كان شكل التحف وألوانها يصرخ بهويتها..
إنها تحف عربية مصنوعة باليد.. جلبها الفضول إذ
بها تلج الدكان..

- أهلا سيدتي كيف أخدمك؟

- لا شكرا.. أثارتنى هذه التحف.. هل هي عربية؟

- أجل مستوردة من سوريا وتركيا.

- جميل، رائع..!

ظلت تتفرج منبهرة بجمال التحف الجلاليب
والأوشحة العربية.

-أنا آسف سيدتي يجب أن أغلق .. اليوم جمعة و هو وقت الصلاة .

-الصلاة؟! أنت مسلم؟

-أجل أنا لبناني مسلم .. وأنت؟

-مصرية مسلمة أيضا

-الحمد لله .. يعني بتحكي عربي؟

-إيه طبعا

-ياالله .. اتركينا من الإنجليزي، لقد مللنا الحرف الأجنبي .. خيلنا نحكي عربي أحلى .. مو هيك؟؟

ابتسمت:

-هيك طبعا،

لم تدر منذ متى لم تبتسم .. لم تضحك رغم أن ضحكها المقهقهة كانت تطير الحمام من عشه على سطح بيتهم هناك بعيدا .

-أنا عماد

ومد يده مصافحا

-أنا فردوس

أحست بدفء يده يسري في جسدها تيارا كهربائيا
عكس عقارب الساعة، فيمر بكل جسدها من الرأس
إلى أخمص القدمين حتى غدت فانوسا يخرج منه
النور والدفء ودندنت في داخلها (والحنان خد
مني وإدي ياللي محروم من الحنان) -الله يرحمك
يا عندليب -ألكنها سحبت يدها بلطف وخرجت
مودعة إياه.. ناداها:

-فردوس

-نعم؟

-خذي هذا الكرت تبعي.. اتصلي بي إن
احتجت لأي شيء.. أي شيء.. أوكي؟
أومأت:

-إن شاء الله.. شكرا.

ظلت طول الليل تفكر فيه.. اللعنة على خافقي!
ما به يتوتر ويوترني؟ أهو موت قادم من جهة الشرق،
أم طاعون سيفتك بي ويعيدني للقعر المظلم ثانية؟.
هه! متى طفوت على السطح بالله عليّ؟! متى؟!
كلما أخرجت رأسي ارتطمتُ بطامة كبرى،

وعدت رغم أنفي إلى أسفل السافلين.. إلى قعر
المحيط البارد تتربص بي أسماك القرش وأذرع
الأخطبوط.. أنا ربما لست طبيعية.. أنا مازوشية..
سيكوباتية.. أبحث عن العذاب.. أتحرش بالألم..
أغازل الإحباط ولا أمل.. لكن ليس ذنبي أن أقع في
الحب وأهوي بلا رادع، أنا ابنة «الفالتاين».. شاء
القدر أن يرميني للحياة ذات عيد حب، فأنا سمكة
تتنفس العشق السرمدي، و تموت بدونه.. ألفت
رواية كانت فيها شهرزاد، لكنها لا تعرف شيئاً عن
شهريار، وبدل أن تحكي له الحكاية حكيتها لنفسها
ونامت، وعلى فمها ابتسامة بريئة وعلى خدها دمعة
حزينة.



كانت جالسة في مقهي (تي مورتن) تشرب
شوكولاتة ساخنة، عندما رأته داخلا من الباب..
شل تفكيرها.. ارتعشت أوصالها.. هل سيعرفها؟
أكد لا! إنها تتوهم.. ما بي أنا؟ ماذا دهاني؟ كأني
عدت مراهقة ابنة السادسة عشرة أرتعد لرؤيته،
وتحمرّ وجنتي وأرتعش.. سخيف.. والأسخف أنّ
كل هذا لأجل شخص لم أراه إلا مرة واحدة.. تُرى
كم فتاة احتضن يدها ذلك اليوم؟ أعتقد أنه سيتذكرني
وأنا لا أحتل شيئاً في وجدانه ووجوده..

يا للهول! إنه يتسم لها ويتقدم نحوها.. الموت
الزوّام آت من الباب الغربي للمقهى..! مد يده
ليصافحها.. أحست كأن يدها لم تفارق هذا الكف
من لحظة التحامها به قبل ثلاثة أيام.. تمنّت لو
ظلت حبيسة كفه إلى يوم تنادي باسم أمها عند
استفاحتها من سباتها المقدر الذي لا مفر منه.. تمنّت
لو حُفرت خطأ في يده.. لو جرت دما في أورده.. لو
نبتت شعرة يتيمة في صلعته.. لكنه سحب يده برشاقة،
فتهاوت يدها كأن لا عصب يشدها، واستفاقت على

شذى صوته كمن يستفيق من سكر على خدر..

-آنسة فردوس كيفك؟ كويسة؟

-وحضرتك؟

-منيح الحمد لله.. أسمحين لي بالجلوس، أم

تنتظرين أحدا؟؟

ردت بلهفة كمن ينفي عن نفسه تهمة خطيرة..

كادت تقسم بالله، لكنها تماكنت نفسها واسترجعت

رزانتها وقالت:

-لا! أنتظر فقط وقت «الميترو» والجو بارد في

الخارج، فارتأيت الدخول لشرب شيء يدفئني.. آه

أسفة سيد عماد يجب أن أذهب، بقي خمس دقائق

على موعد الميترو..

-وهل هناك من ضرر لو انتظرت غيره؟

-أجل! لا بد أن أمضي.. فدوامي يبدأ على

الساعة السادسة .

-ما عملك؟؟

-نادلة

-أين؟؟

-بمطعم (Jean) La belle bleu - sur la rue Talon
لابال بلو شارع جون تالو.

-تعشين وحدك؟

-أجل، أنا طالبة بجامعة مونتريال نهارا وأعمل
بوقت مقسم ليلا (temps partielle).

-تحياتي لإرادتك

-عذرا.. يجب أن أرحل..!

هرولت متوترة الخطى كأنها نسيت خبرة المشي.

لم تفهم سبب ذلك التصرف الطفولي منها..
لماذا تهربت منه في آن كانت تتوق بشوق لمحدثته؟
ما هذا التناقض المقطب بين الفردوسيين؟ أم تراها
تخاف الإصابة بفيروس فقدان المناعة التعففية
فلا تصمد أمام هجماته الغزلية؟ وما أدرها أنه
كان سيغازلها؟ لقد تمادت حقا في استباحة احتلاله
بشساعة مساحة حلمها، ها هي تسلط سوط التأنيب
على ذاتها، فغدت القاضي والمتهم البريء الذي
اقترف جريمة في ظروف خارجة عن نطاق إرادته..

فالحب قدر مقدر ولو خضع للتخطيط لن يكون
حبا... أن تلوم أحدهم على الوقوع في الحب كأن
تلوم المجنون عن جنونه، أو الميت على موته -



- أنت اليوم شاردة ولم تعجبيني يا فردوس .. ما بك ؟

- لا شيء سيدي .. لا شيء! أنا فقط متعبة قليلا

- لكن الزبائن لا يحتاجون فقط طبقا مزيئا، بل أيضا وجهها بشوشا باسماء، أمّا إذا كنت متعبة، فيمكنك الذهاب.

- لا .. لا أرجوك! سأكون بخير.

كيف تستأذن وهي بأمس الحاجة لكل قرش ستجنه من هنا؟ حاولت أن ترسم بسمه أنيقة على شفتيها، لكن فكرها ووجدانها كانا مشغولان بذلك الغريب الذي استحوذ على عقلها وكيانها، وجرى مجرى الدم في شريانها .

ظلت جالسة وبين يديها ذلك الكرت الذي يحمل في مساحته الميكروسكوبية لهيب مشاعرها، ولهفتها الأنثوية الماجنة الخفية .. أجل؛ فكل أنثى تحمل في أعماقها طاقة وعنقوان تلك الماجنة المتمردة الملتهبة .. قد تطفأ نيرانها يوما على حلبة سرير موثّق، أو بين أحضان عابر جسد، وقد تظل

حبيسة أحلام اليقظة والإغفاء، وقد توثق إلى سرير موثوق، وتعيش و تُصَاجِعُ و تلد و تموت دون أن تعي أن للأنثى غريزة كالذكر، ويكون للذكر وحده حق المبادرة والمغامرة والمباغثة، وحق التهديف وتحديد عدد الجولات والإضراب والاعتزال.

ظلت مترددة قلبها يوسوس لها بالاتصال به بأي حجة، وعقلها يضغط زر «الفيدباك» لتتذكر اندفاعها في مغامرة حب فاشل مع ذلك «الكيبكي»⁽¹⁾ الذي بكل سخافة راحت تدعوه للإسلام كشرط لزواجها منه، فكان رد فعله أن خرج من حياتها صافقا الباب صفقة قطعت حبالها الصوتية وأصابتها بجلطة عشقية شلت تدفق الحس في روحها، وكادت ترسلها إلى الإنعاش النفسي.

أنهكها الصراع بين قلب مندفع، وعقل يكبح، فأخرجت تلك البطاقة وشكلت رقمه :

-ألو من معي؟ ألو..ألو..

لقد لجمت، لم تتمكن من إخراج ولو حرف واحد! رمت الهاتف، وانهارت على أول كرسي صادفته، و تاهت في جولة عبر دروب الذاكرة

(1) نسبة لمقاطعة كيبيك بكندا

ودهاليزها.. صدمة على هذا الحائط.. بسمة في ذاك
الركن.. آلام مصطفة على الرفوف.. وجوه أليفة
وأخرى ما عادت تدري أهى حقيقة مرت بها، أم
مجرد إبداعات من خيالها، وهوامات طفولتها
البعيدة الغابرة في اللاوعي.. لقطات حذفها الرقابة
فاستحال رؤيتها ثانية.. ارتعدت فرائسها عندما نبهها
الهاتف إلى غياب وعيها:

-نعم

-هل اتصلتم بهذا الرقم؟؟

-آآآه.. لا.. أجل.. أجل.. أنا فردوس

أهلا عزيزتي، كيف حالك؟ سعيد بمكالمتك.

-بخير.. شكرا، وأنتم؟

-من أنتم؟ أنا وحدي هههههه.. أنا لست

بخير!

-لم؟؟

-مشتتاق.. وحيد.. متعب أنا.. ولدت ذات

حرب وتيتمت ذات فجر، وأحتاج لصدر يعوضني

حنان أمي، وهد يدفئني، ويد تضمني وتمس

بالحب في أذني في هذه المدينة الغريبة عني.. فهل

تقبلين تطفلي؟

-ماذا تقول سيد عماد؟ آسفة! مضطرة لقطع
الخط.

-لو قطعته لن أتصل ثانية، كوني كما أنت ولا
تراوغيني.. أنا لا أحب اللؤم الأثوي.. رجل متشوق
للحب أنا، فقلولي أحبك ولا تخجلي! وارمي في
اللهب كل العقد، فليس عندي للحب أجل، وأمقت
«البروتوكولات» الجوفاء، والكلمات الممتقاة! كوني
عفوية كالعجر، وأدخليني من أي باب شئت، وفي
أي وقت شئت.. مشرعة هي أبوابي للحب.. ولك،
فاسكنيني للأبد يا جنية أحلامي ولا تهجريني مهما
بسملوا ورتلوا من الرقى على مسمعي.. تشققت
قبلك تربتي من كثر الجفاف، ومن يأس صحرائي
خرجت.. ما عرفت امرأة أحلى منك ولا أشهى منك..
يا زهرة نبتت في جوف الصخر وأينعت في غروب
نهارى.. بين جفونك سأمضي عمري، ولك مني كل
الولاء والوفاء، ولن أرى بعد اليوم غيرك من النساء.
إني وجدت معك الحب المنشود، ولن أتركه يمضي
لأن الحب غيمة إن مضت لن تعود.. بل ستمطر
خيرها وعطاءها في مكان آخر، وأنا أريدك بخيرك
وشرك.. برحمتك وحقك.. بكل ما فيك، فهيا
مدي يدك وخديني! ولك وحدك أن تحتكريني..

سأمضي على بياض عقد الحب، فكوني السم
والترياق، والقرب والأشواق، واللهيب والإطفاء،
والماء والهواء، والحرب والسلام.. كوني كما شئت
لكن لن تكوني إلا ملكي يا ملاكي.. كوني أنثى..
فقط أنثى تشع على رجولتي نارا فتحيلها رمادا،
وانزعي على باب معبدي أثواب الزهد والوقار،
فحواء كانت ترتدي ورق الأشجار.. ارقصي في
محرابي وغردي في وحدتي وأنيري بعينيك ظلمائي..
سأطوي سوط العشق على ذاتي.. كوني جلادي يا من
كان على يديك ميلادي..

ظلت ساكئة كأنها تلقت صدمة كهربائية..
خشبت روحها والجسد.. لم تكن تتوقع أن يهجم
عليها بطلقات غزلية وإعلان حبي بهذه السرعة..
امتزجت مشاعرها بين فرح وخوف.. لم تجد إلا أن
تقول له:

-أسفة.. سأقطع الخط.. عندي صداع.. يجب
أن أنام تصبح على خير!

-هذه أعراض الحب التي لن تشفيها إلا جرعة
قُبَل.. تصبحين على حب يا من غدوت لجاهليتي
هبل..

قطعت الخط الهاتفي معه، لكنها لم تقطع الخط
الفكري والتخاطري، بل جلست وقالت لنفسها
كلما أرادت قوله له: «عندما أفكر فيك أنسى وحدتي
وهمي وأغفو عن الوجود.. يا رجلا يشع بالبرود
ويقتلني بالحد والحدود، فأنت مشكاتي وشكوتي،
وهمي ووهمي، وولعي ولوعتي.. خصوصية أشياءي
وحافظة أشواقني أنت.. سكنني شيء لست أدري ما
هو؟ حب؟ عشق؟ المهم أن هنا إحساس غريب
وقوي وجارف واثقة من وجوده.. عاجزة عن وصفه
وتفسيره.. دونك لا هواء.. ملل سأم اختناق! معك
تحلو لحظاتي وأوقاتي، وتعتمد خفقاتي. أريدك هنا
قربي ببسمتك وبصمتك، بلطفك، بعنفك وعنفوان
رجولتك.. بريق عينيك نجم الهدى في الوعراء،
كلامك موسيقي وألحاني.. يا عندليبي وعذابي..
بُعدك برد وسقم.. قريك نار صقر.. فقط أتمنى ألاَّ
تكون سرايا إذا وضحت الرؤى أجده خرابا، فتفتت
روحني وتكون ترابا..

قطعت جبل أفكارها رنة هاتف وحيدة.. أه
رسالة..! هل تكون سهير؟ ارتعشت يدها عندما
وجدت أنها منه: «غدا السبت لا شيء لديك أكيد،
سأمر عليك الساعة الحادية عشر لنمضي بعض

الوقت، وبتكلم. أحتاج فعلا لمحادثةك. أرسلني لي
عنوانك، و إن لم تفعلني لن ترينني بعد اليوم»...
قلبت الهاتف على وجهه وغطته بوسادة كأنها
تخاف أن تنطق الكلمات وتجبرها على الموافقة؛
ماذا تفعل؟ إنه يهجم عليها كالبحر.. كحد السيف..
لا حلول وسط معه.. إنه لا يترك لها حتى فرصة
التظاهر بالتمنع، و التلذذ بملاحقته لها كما تعودت
كفتاة شرقية. لم تجد إلا أن ترسل له عنوانها، وتغطي
رأسها كالنعامة كأنه هناك يراها وتنام.



أي لون يليق بلقياك يا سيدي؟ فموعدك سيد
المواعيد يا سيد الكلمات.. يا غازل الحب وصانع
الأمنيات.. أي شكل أو أي زهر يحتفي برجل بين
أوردتي يتهادى؟ أأترين؟ أأكتحل؟ الكل يفعل هذا،
أريد شيئاً فوق العادة يليق برجل اخترقني وما
زال يفعل بلا هوادة.. يحاصرني خياله في الصحو
والإغفاء.. في قهوتي وأوراق كتاباتي.. يأتيني صوته
في كل الأغاني.. ريحه تلاحقني.. تغشاني.. تغشيني
وتكاد تغميني.. همسة منه تميتني وتحيني وتروي
عطش حيني.. لمساته تعتصرني وتكتم أنيني
وتنسيني نوعي.. أصلي.. جنسي.. ديني.. أصاب
بدوار البحر وفوق اليابس أمشي، وأتنفس ما ذاب
من الأوكسيجين، وأغدو سمكة قرش حكم عليها
بالغطس والطفو اللأمستكين في بحر حبك الرهيب،
وغموضك المهيب.. يا ساكني ومسكني..

ها هي ذا تسير بخطى متناقلة أرادتها متسارعة،
لكن رجليها ما عادت قادرة تين على حملها من
فرط انفعالها وتوترها.. تاه عقلها شغفا وولعا غير

آبهة بما سيحصل.. هامت في سماء الخيال، ونزلت ذلك الدرج مغمضة العينين حتى تعثرت وكادت تقع.. لا يهملها.. ستمضي في ذلك السرداب الطويل الذي لا تدري إن كان له مخرجا للنور، أم هو مغلق المنافذ.. ستتجرع الحب قطرات من العسل وبعض علقم.. هذا قدرها وقدر العاشقين وما بوسعها أن تفعل؟ عواطفها متأججة ممتزجة في غير تجانس، لا هو خوف ولا طمأنينة.. أمل يغشاه اليأس، ويأس يوشحه الأمل.. أمل في ماذا؟ في أن تكتب نهاية سعيدة للحكاية؟ تذكرت ما قالتها صديقتها سهير: «من حقنا أن نحلم لكن فقط يجب ألا نتمادى في تصديق أحلامنا» .

جلس قبالتها.. خدمتها كثيرا تلك المزهريّة الفاصلة بينهما في إخفاء توترها الذي ظنت أنها أخفته، لكنها بقدر ما كسته.. عرّته.. ها هي من تعودت خدمة الزبائن تجلس أميرة وهناك من يخدمها، والحب جارها، فهل هناك أجمل من هذه اللحظات؟! حتى لو كان ما تعيشه سرايا.. الحياة كلها سرايا، فلتكن ذكرى جميلة للسرايا، لا ذكرى بشعة للواقع والخراب.. قال:

-أنا هنا لأحكي عنك و عني.. أنا ابن مالك
سلسلة محلات «سجاد فارس»، أقيم بمونتريال منذ
عشرين سنة.. منذ أن هاجرت عائلتي من لبنان وكان
عمري يومها اثنا عشر عاما، تخرجت من (كولاج
ميزونوف) بشهادة تجارة وإدارة أعمال، وها أنا أدير
أعمال والدي وأتابع دراستي بالجامعة الليلية آداب..
وأنت؟

-أنا حياتي لا تختصر في كلمات، لا تسرد.. بل
تُعاش!

-كم أتمنى أن أراك في شقتي وأتذوق من عمل
يديك مما تجود به ذاكرتك الشرقية من وصفات
مبهرة بنسيم الشرق والزعفران، فهل هذا سيحدث؟



دقت الجرس.. فتح لها بلهفة.. ودخلت
برجفة.. شقة أنيقة غير مكتظة بالأثاث كيبوت أثرياء
العرب.. الطاولة جاهزة بأصناف الأكل، فحكاية
الطبخ مجرد حجة كانت: شاورمة، أرز، بيزا، أنواع
أجبان، سلطات، ومزهية صغيرة لزهور صناعية.

-أنا لا أحب الورود الصناعية.

-لكن الورود الطبيعية لا تناسب طاولة أكل،
لأن أريجها سيمتج برائحة الطعام ويتج إحساسا
منفرا، كما تسيطر رائحة عطرك ال(مارك جاكوب)
على حواسي الآن، فتغلق شهيتي للطعام، وتفتح فيّ
شواهي وشهوات أخرى..!

مد يديه واحتضن يدها، ثم قرب شفثيه من
شفثيها محاولا تقبيلها.. لكنها انتفضت، وقامت
واقفة:

-معذرة يجب أن أرحل!

-والأكل؟؟

-فعلتك سدت شهيتي عن الأكل وسواه!

-لم؟! ... هل أجمت؟ لم أنت هنا إذن؟

-أنا هنا لأنني.. لأنني مومس.. مومس..

واندفعت راکضة .

-فردوس.. فردوس..!

آه يا قلب كم اعتصرك الألم.. كم خفقت فوق
طاقتك وبذلت جهدا أكبر من جهدك، وأتعبت
بالوجد صدرا يحملك..! تتألم وتؤرق من حولك..
ما أسخفك! لم الحزن؟ إنه زمن الأقوياء.. هذا
الزمن ليس زمن الأغبياء الذين ينشدون حبا بلا
ثمن.. زمن الأسود لا زمن العصافير الوديعه.. قصير
ومختصر هو عمر الفراشات البديعة، وطويل جدا
حزن الوجوه البريئة.. تستثار العيون لكل ما يبرق
وتعمى عن كل جوهر إن غلف، إنه زمن الدف..
كرنفال الصخب.. فكيف ستجد لك مكانا وسط
أناس هبطت درجة أرواحهم إلى سبعين درجة تحت
مستوى الإنسانية..؟! كيف ستعيش بين من تسحق
أقدامهم أزهارا في البرية..؟! غبي أنت يا خافقي أن
تلوم من يحسدك ويكرهك دون سوابق معرفية..

إنه زمن الكراهية.. زمن العدائية والغيرة المتوارية
والأقنعة الخاوية.. مت متسما بعنترياتك الحليمية،
أو عش معزولا في تلك الزاوية ولا ترهقني.. إني
مللت وساوسك اللأمجدية..

تذكرت «محمد»؛ ذلك الشاب الفلسطيني
صديقها على الفاييس الذي يحبها حبا جنونيا ولا
يطلب شيئا مقابلا، وما يزال يحترق عشقا رغم أنها
لم تتمكن من مبادلتة أي مشاعر.. فما أجمل الحب
الذي يأتيك من بعيد: حب بلا رغبة.. بلا هدف..
منزه عن كل غرض.. حب صافٍ ونقي لا تشوبه
شوائب المادة الفانية.. لانتتابه لحظات حيوانية..
لا أمل فيه لشيء غير حب كبير بحجم وطن..
حب لونه كوجه الأم المبتسم.. تعانقك من بعيد،
روح بطيبة الأنبياء وزهد الأتقياء.. تحترق لأجلك،
وترجو سعادتك.. لا يطيب لها عيش إلا بيسمتك..
تعشقت وتتمادى في عشقك رغم أنها لن تلقاك، ولن
تلامس هيكلك.. تحزن لحزنك وتقلق لقلقك، تقهر
لغيابك، ترتجف رعبا لفكرة فراقك رغم كونكما
مفترقان.. تلقاك رغم أنها أبدا لن تلقاك.. تراك،
وهي أبدا لن تراك.. تشتاقك شوقا أبديا، وتكتفي
منك بأحرف متناثرة وبضع كلمات.. حب كهذا

يسعدك حد الغرور، ويشقيك حد النفور، ويحزنك حد الاكتئاب، ويؤلمك حد الفرار، فتحس بالذنب بلا ذنب يذكر.. تختلط أحاسيسك عليك ويغيب الحكم عنك، وتعجز عن أي قرار حتى عن الحضور أو الغياب.. فما عدت تدري أمن الأختيار أنت، أم من الأشرار..؟!!

عندما تحب إنسانا ما؛ ضع احتمال فراقه في الكفة الأخرى للميزان، فبقدر ما تبيح لنفسك حبه، بقدر ما تغامر بصعوبة نسيانه وضخامة حجم ألم فراقه لأن الحب طاقة كلما استثمرت منها أكثر، كلما تألمت لفقدانها أكثر.. وكلما تعلقت أكثر بمن تحب وأدمنت قربه، كلما كانت محاولة نسيانه كمحاولة تذكرك ملامح إنسان لم يسبق لك أن رأيته.. فكن منطقيًا إذن، وحاول كبح جماح مشاعرك ولا تطلق لها العنان.. وكل شيء بمقدار!

استلقت على أمل أن تنهض لتغيير ملابسها، لكنها نامت مثقلة بهمومها وملابسها.. وما بين صحو وإغفاء بزغ فجر جديد ليوم جديد.. ستأكل بلا شهية، وتنفذ مسؤوليات جبرية، وتنام، و.. وتنتظر ما ستحمل لها أيامها الآتية.



في قعر الظلام.. في جوف الخوف.. في عطش
الصوت واللون.. في ذلك العصر الغريب الطقوس،
كانت تتخبط في دوامة الحاضر المعجون بعصارة
الماضي، والمبهر بآتٍ مجهول الهوية والمعالم..
وقفت، فغاصت أرجلها في أرض هشة.. سبحت..
كان اليم متيِّساً.. كانت هناك وحيدة بعيدة شاردة..
شاردة.. زهرة تلهو بها يد الرياح لا غصن يسندها،
لم تتلق أيّ لقاح فمناعتها أضعفها نقص الشمس في
هذه المدينة المكفّنة بياضاً.. هي من كانت تتغذى
من لب الشمس وتتعشى من لهيها وتستحم بنورها
حتى يأخذ لونها ملامحها، ولامحها لونها.. فتشع
نارا ونورا وجنتها وتصير ثمرة يانعة قبل موسمها.

أي فيتامين ينقصها يا ترى؟ إنه عنبر الشرق
وعبير المراعي ما ينقصها.. هناك حيث كانت
تصطاد القمر وتضعه على حجرها، فتهديه بعض
القبل ويهديهها عطر الربى، وإن عطشا فمن معين
الحب يشربا ويحتفي بهما الفراش وتزغرد البلابل
ويغطيها الدجى ويرقصان على أنغام الغدير ولحن

الخير ويتعطران بالصدى والشذى، و يتوجهما
المرج عاشقين من ذلك الزمان المنسي حيث كانت
الأرض بالحب تكتسى وتشع بالصفاء والوفاء،
ويضع على جبينيهما أكاليل ياسمين مطوقاً، والشجر
بهما نشوان، والتل ولعان يرمقهما بعين تتوق قريب
الملتقى، والزنبق ولهان يسرق منهما الغزل ليلقيه
ذات حظٍ على مسمع الفتون العابرات للسفوح
والمنحدرات.. في ذلك الزمن البعيد/ القريب حيث
كان الكون ملكها، والدنيا خلقت لأجلها.. حيث
كانت عروس الحب المدللة .. هناك حيث اللازمن،
والمكان قلوب دافئة وأحضان فياحة، بالعطر
فواحة.. حيث الأمان أعين تهيم بملامح لينة شهية
هية غضة الأفنان، تُرْسَقُ بالبسمات صباحا ومساء،
في ذلك العهد.. كان لونها أخضر فاتحا، وكل همها
أن يستفيق الوجود كي تفتح أبواب الكون، وتخرج
لتجمع النجوم في إبريق وتثرها في الأفق عييرا ينعش
الأوردة، فتلين ويجري بها دم صاف لم يلامسه ثنائي
الممسك المسموم.. هي من كانت كل ذلك الصفاء
والخواء والهناء، صارت اليوم جبل هم شاهق يشهق
حزنا مكتوما، ويسيل دمه مالحا، فيقتل ما تبقى في
نفسها من شتلات الأمل.. ينهمر دمعها سيلا معبأ

بسموم الحياة حتى يكون بحيرة شديدة الملوحة
والسُمِّيَّة و1 التلوٲ لا يعيش فيها حتى الموت ذاته.

من يوم فارقه غاصت في العتمة وفي غياهب
الحزن والصمت والوحدة والعزلة الكونية والتيه..
يدونه كانت حياتها موتا مقنعا بأثواب ملونة وبسمات
مصنعة وأشواك بشكل ورود مزخرفة تنفث سمها
عطرا شذيا.. لكنه قاتل أخذ فتاك، يفتك ببطء
وبرود.. ها هي تودع روحها قطرات.. قطرات،
وروحها تغادرها دون وداع..



كانت تعيش الضياع بكل أنواعه في تلك المدينة
الغريبة الملامح والوجوه، تلك المدينة التي لا
تعرف لك فيها جارا، ولا تفرّق فيها بين مأمم
وفرح.. ففي كليهما «الليموزين» العملاقة وأطواق
الياسمين والبدلات المؤنقة وربطات العنق المنمقة
والأظافر السحرية الملونة، وأجراس الكنائس
الملحنة.. ها هي تتغلف بملامح مدينتها وتتقمّصها
وتنغمس في طقوسها بلا سابق تقرير ولا قرار، وترفل
في حرير مخمليّ وعطر عييري.. وداخلها حزن تعفن
وفكر تشتت وحب محنط تجمد، فزاد حجمه حتى
انفجرت الأوردة..!

ماذا استفعل؟ ماذا استفعل؟ تهاثفه؟ تأبى يدها أن
تتحرك، تكاتبه؟ قلمها لا يتحرك زرها لا يُضغظ..
حرفها متعنت.. كبرياؤها مبستر لا يتغير.. إسمنت
مسلح لا ينحني ولا يهزم.. فلتمت إذن متوقعة في
جحر كرامتها، ولا من سيأبه لموتها.. مجرد نكرة
هي في مدينة قاتمة الملامح تعج وتضج هرجا
ومرجا وصخباً.. خلف كل عين من عيونها حكاية..

وألف رواية.. وفي دروبها تنتشر المرايا المقعرة
الزوايا لتذكرك ما أنت كلما حاولت أن تنسى،
وتعريك وتضحك من عوراتك وعبثية قدرك الذي
ساقك إليها بحثا عن قصور العاج، وعيون بلون
السماء والكستناء.

كانت تفخر وتحتفي بشموخ رجولة أنوثتها،
وعزة كبريائها، وتشرب نخب هزيمتها سمًا عتيقا
معتقا، في حين تلعن ملاكها الذي غرها ووسوس
لها، فرفضت شيطانه وغلبيته وقهرت نفسها فتقهقرت
حياتها.. تدعي القوة وإرادة كينونتها و بأنها مثلما
أحبته قادرة أن تنساه.. في حين كانت كل يوم تهيم
على وجهها في الأرصفة ومحطات الباص والميترو
والساحات والمنتزهات والحضائر والحدائق
وضفاف «السان» عساها تلمح عينيه بين آلاف
العيون المختلفة الأشكال والألوان، وتفتش عن
وجهه بين الزنوج والهنود والعرب واليهود والغجر
وأحفاد «كريستوفر».. تطارد طيفه في نوافذ السيارات
ومنافذ العمارات وواجهات المحلات وحتى في
ساحات المدارس والحضانات.. لكن لا وجود لمن
تستجدي.. فقد كانت تهدر الزمن بلا ثمن.

قطعت شارع الحزن الطويل عساها تعثر عليه
ولو صدفة، وقفت أمام المحل.. المحل كعادته
يعبق برائحة الشرق وشمعداناته النحاسية.. ترددت
كثيرا قبل أن تدخل، ثم دخلت. كان الدكان كعادته
هادئا وصامتا لا يؤمُّه الكثيرون، لكن هو ليس هنا..
تقدمت منها فتاة باهرة الجمال.. سألتها بالإنجليزي:

-هل تحتاجين مساعدة سيديتي؟

تلعثمت، فالمساعدة التي تحتاجها ليست سهلة
المنال، ويصعب التعبير عنها. جمعت قواها وسألت:

- السيد عماد لا يأتي اليوم إلى المحل؟

أجابتها بالعربي:

-قصداً «البص»؟

-إيه.

هو مسافر للبرازيل لعند والدته...

صدمت وكاد يغمى عليها، وخرجت تجر
خبيتها: لماذا تعاكسها الحياة هكذا؟؟ حتى عندما
قررت إنقاذ حبها والتبرع بكبرياتها بأبى كبرياؤها

الرضوخ لأنه جزء من صورة ذاتها وتمنعها رقابة
الحظ الملعون المسكون بلعنة الفرعون أن تفعل.

كيف يسافر دون أن يودعها؟ ألهمه الدرجة هانت
عليه؟ إنه مخادع كاذب.. لو كان قد أحبها نصف..
بل ربع ما أحبته لما نسيها وتخلي عنها بهذه السرعة،
ثم ماذا يفعل بالبرازيل؟

آه ، تذكرت؛ إنه قد أخبرها أن والدته مطلقة
وتعيش مع زوجها الجديد بالبرازيل.

دخلت الشقة منهاراً، استلقت على الأريكة
اليئمة.. اللعنة على المارد المسمى الحب! إنه لا
يجلب غير الهم و الغم والتعاسة وعمى الألوان
والأشخاص..! الحب بحر تشتهي لونه و صفاءه..
يغازلك.. يناديك بلطف فاتحاً ذراعيه بلطف،
ويستدرجك شيئاً فشيئاً نحو أعماقه الغامضة، وما إن
يحتضنك حتى يلتهمك.. يكفنك ويدفنك، فتكون
قرباناً دسماً لأحشائه النائبة، أو يبصقك جثة قاتمة
هامدة، إنه عميق وغامض.. نرجسي وسادي..
يستلمك شيئاً بنياناً كيانا ويرميك مسحوقاً تذره
الرياح العابثة العاتية وتلهو به على شاطئ النكبات
المتتالية .

لم تصدق هاتفها الذي ينبئ برسالة منه : «أميرتي..
حبيبتي.. وطني.. ذاتي.. أنا آسف على ما حدث ذلك
اليوم.. كنت فقط أريد أن أعبر لك عن مدى حبي
لك وإعجابي بك.. أو تظنين أنني قد أنساك؟ هذا
مُحال! قلبي ينبض بحبك حتى آخر يوم في حياتي..
حتى تعلن وفاي.. آسف فعلا لكنني تلقيت اتصالا
هاتفيا من زوج أمي يخبرني بأنها نقلت إلى العناية
المركزة، و بأن حالتها غاية في الخطورة.. والحمد
لله، هي قد تحسنت وسأعود قريبا .. أحبك».

ها هي تراقص الأشباح وتسهر إلى الصباح..
ها هي قد عادت من جديد فتاة لا تتعدى العشرين،
تتمايل على أنغام عبد الحليم، وتدمع عيناها للنأي
الحزين، وتنزف مشاعرها شعرا يتطاير ذات الشمال
وذات اليمين، وأصبح ضياء روحها يشع ويطوي
أطياف السنين، وينسيها الأنين ويشعل لذة لا تستكين
بأن تحب الحياة بكل ألوانها وفصولها إن ارتدت
كشميرا أو حريرا، وتندم على ما فات في العتمة من
سنين، فلا أجمل ولا أحلى من الحب يغذي الروح
ويشع نوره ضياء ونسيما ينعش العالمين.

مر يوم وأيام بعد تلقيها لتلك الرسالة، ولم يأتيها

جديد ولا خبر، فهل ستظل قابعة تنتظر؟ لا.. يجب أن تتصرف.. أن تكون متميزة وفعالة، وتنسى كل العقد، وتجتهد في سبيل سعادتها..

أجل ستكون براغماتية الفكر، براديمية المنهج.. ستضع فرضيات ومنهجية وخطة محكمة للوصول إليه واحتكاره للأبد..

ارتدت ملابسها، وفتحت الباب قاصدة التوجه للمحل.. ياللمفاجأة! إنه أمام الباب ينتظر.. لم تتمالك نفسها وارتمت بين أحضانه تحترق، وتلاقت الشفاه في عناق طويل.. ثم كمن يتخبطه الشيطان ارتجفت وارتعدت وابتعدت..

-أسفة لا أحب الحرام

-عن أي حرام تتكلمين؟ إنه حب! نحن لا نؤذي أحدا.. فقط نسعد أنفسنا.. نعبّر عن حبنا..

-أسفة.. هذا ليس منطقيا لأننا لو انطلقنا من هذا المبدأ سنفعل كل شيء مادام يسعدنا ولا يؤذي الآخرين.. كأن أتزوج أخي مثلا...

-لكن زواج الإخوة يعطي أولادا مرضى

-لن ننجب أولادا مثلاً؟

-كيف تقارنين قُبلة بين عاشقين بزواج الإخوة،
أو الشذوذ...؟!

-الحرام.. حرام! الدين لا يتجزأ

-بل هناك كبائر، وهناك مكروه.. و.. أما مجرد
قُبلة وحضن، فلا حرام ولا لعنة فيهما..!

-لا.. لا! هناك أشياء تربينا عليها ولا يمكننا
تجاوزها، وخطوط حمراء نقف عندها دون تساؤل
لأنها البعد الفاصل بين العقل واللاعقل.. بين
الإنسان والحيوان.. بين التسليم والإيمان وبين
الإلحاد....

-ماذا تريدان إذن..؟ الزواج؟ لا مانع لدي..
فلتزوج!

-لكنك لا تعرف عني شيئاً

-كل هذا ولا أعرف عنك شيئاً؟! أعرف أنك
الحب والأمان والحنان.. أنت أُمِّي وأختي وصديقتي
وحبيبتي وكل حياتي.. أنت امرأة بحجم وطن!

-أفصد حياتي الماضية..

-أنت ملاك طاهر لا ماضٍ له..

-بل له!

ماذا؟

-أنا.. أنا كنت متزوجة، ثم إنني أكبرك سنا..

-السن؟! لا يهمني، فقد أحببتك، ولن يتغير ذلك بسبب رقم مكتوب في سجل مهجور، ولا علاقة للحب بالسن.

-لكن متزوجة

-لم لم تخبريني بهذا..؟

-لم تسألني!

-لم أتوقع هذا.. على العموم ماضيك مات ودفن، ففردوس التي أعرفها ولدت يوم أحببتها..

-لكنه كان زواجا عرفيا!

-ما معنى عرفيا؟!

وانفجر ضاحكا، ثم أردف:

-وتتظاهرين بالشرف وترفضين مجرد قبلة!
ياخبثك ودهائك..! كنت فعلا تستدرجينني لشباك

حبك كما يستدرج العنكبوت صيده.. آسف سيدتي
انتهى الكلام..!

يا رجلا لأجلك قطعت أوردتي بنور الفجر، ولونت
بدمي وجه الشمس ورحت أجتث أحشاء الوجود
وأمتني نفسي بالخلود، وأعزف لحن الشرود.. غازلت
انكسارات روعي وراودت عن روحها الريح.. عتقت
أشجاني قوارير أمان.. رقصت حروفي فوق أحزاني
وجفت في حلقي الأغاني.. قضيت وتيمت ألحاني..
كيف تتركني وحيدة وتمضي، تتركني لأحزاني وأشجاني
وأخطبوط الزمان، من لي بعدك في هذه المدينة الحزينة
بل هذا الكوكب!؟

من دونك أنا يتيمة مسكينة أعيش كنبته صبار
في القحط الأعظم في الأخدود الأعظم والأعمق
من الصحراء الشوكية العظمية، لكنني سأصبر
متأكدة أنك ستعود إليّ يوما.. ستجرفك أشواقك..
ستحرقك نيران الحنين.. وستلين وتبحث عني بين
تلايف السنين، وإن لم تفعل، فهذا يعني أن كل
ما أحسسته وأحسه نحوك كان وهما وإنني الآن
فقط كشفت بواطنك.. لن أحزن.. لن أغضب..
لن أكسر أصاصيص الزهر والمرايا.. لن يندفع

الأدرينالين في جسدي.. سأحافظ على هدوئي
واتزان روحي.. سأكتحل الحب وأنتعل الخلود،
وأنتظرك متى إلى قلبي تعود.. سأتوشح نور الفجر،
وأعطر بالسحر، وأصطلي بنار الشمس ونور القمر
وأصلب على بوابة الزمن أغزل من خيوط الألم
أمل.

انتبهت من ذهولها على صوت منبه شاحنة إذ أنها
كادت أن تقطع الطريق والإشارة الحمراء مشتعلة.

دخلت.. ارتمت على الأريكة المنهكة من كثر
تداول الأجساد عليها، وإذ تسمع الجرس.. فتحت
الباب كان هو.. أجل هو بوجه أصفر لامع وعينين
برّاقتين.. دخل يتمايل وهجم عليها يقبلها:

-أحبك.. أحبك، لا أقوى على فراقك.. سأموت
من دونك.. أنت أغلى وأحلى ما بعمري.. غجريتي
ذات الجمال الشرقي الملامح.. أحبك أنت فقط..
أنت دون غيرك.. أرجوك أحييني.. ضميني.. أريد
نهذا وصدرا يعوضني عن حرمانني من نهد وصدر
أمي التي حرمت منها وأنا ابن مراهقة.. تائه بين
تلاطم مشاعري وأزمة هويّتي!

دفعته عنها قائلة :

-أنت ثمل أرجوك

-بل متيم بحبك و ثمل بشفتيك

-أرجووووووك!

ارتمى على الأريكة محبطا و ذهب في سبات ..

أطلت أولى ابتسامات الوجود الدافئة لتحرك
حياة جديدة وأملا متجددا، فأشراقه الصبح هي
تجدد للأمل، ووعد بعقد مؤقت آخر على ظهر
هذا الكوب الدوار، وكل ذلك مدون على كف من
نحب .. فالدنيا بدونهم قفار خالية .. فراغ .. عدم!

وجودهم لذة عطاءات الحياة المستمرة، وعودة
المشاعر المسلوبة، وتوهج طاقة الحياة .. وهو ما
يغذي إرادة البقاء .. وجودهم نسغ الفكر والروح
وراحة الحياة.

كانا ملستقيين في براءة الأطفال كلاهما يحس أنه
ابن الآخر وأمه وأباه ..

-صباح السفر منك إليك أيها الدفء والوطن ..
أيها الأمل المنتظر ..

-صباح مليء بحضورك حبيبي، مشرق بوجه
حبك وقتنة هوالك.. يا نبع عباراتي وعبراتي، ولعالم
الخلود عبارتي.. حبيبي..

-أحبك ولن أستغني عنك أبدا.. أنت روحي
وسر وجودي.. أنت عمري.. هل يوجد أكثر من
هذا؟ أتحدى العالم كله لأجلك..

أما زلت تسألين هل أحبك؟

أيكفيك إن قلت أنت شروقي وغروبي وأحلامي
في منامي؟

ما أسعدني يوم أعطيك اسمي، وتعانق روحي
روحي..!

الحب مخلوق.. كائن حي يحتاج الرعاية
والحماية والوقاية للحفاظ عليه في حالة صحية،
ويحتاج إلى الوعي والإرادة والتوافق الفكري
والعطاء المستمر بلا كلل ولا ملل.. ونكران الذات،
والإيثار وتسييق الواجب على الحق.. كما يتطلب
الثقة والشعور والإشعار بالأمان، والصراحة والحوار
والصدق والغفران.. لا أحد منزّه عن الوقوع في
الخطيئة، فسبب وجودنا على هذا الكوكب كان

الخطيئة، فهي إذن فطرة مطبوعة في كينونة الإنسان،
لذا يجب أن نتعلم.. أن نغفر.. أن نسامح.. لا يوجد
شخص مثالي في أي شيء.. بل يجب أن نصقل
شخصياتنا بأيدينا ونجعلها متكيفة مع مقاييس الحب
والارتباط.. عديني أن نكون واعيين بهذا.. عديني
بأن نكون جديين وواقعيين وعمليين وعلميين في
مواجهة أية مشكلة أو عقبة ستصادف مسار حينا..
وأن يضحي كل واحد لأجل سعادة الآخر، وأن يرى
فرحته في عيون الآخر..

سأعطيك اسمي وثروتي وحياتي، ولا أطلب منك
غير حزن أمّ، ولمسة حبيبة وفيّة زاهدة عن سواي..
أريدك زوجة ورفيقة وعشيقة وصديقة صادقة..
لا أرى بعدك امرأة أخرى، وتكونين لي فراشا وأكون
لك غطاء، وتكونين لحدي ومثواي الأخير..

قطع كلامه رنين الهاتف:

-آلووو...

انهار على الأريكة باكيا..

-ما بك حبيبي؟!!

قطع نحيبه لسماع ما كان يتظره.. ارتمى في
حضانها باكيا كمن يبكي على صدر أمه.



كانت في المطار تودعه باكية ويديها في حضن
يديه الدافئتين:

-حبييتي كفى بكاء! كلها أيام أحضر جنازة
والدتي وأعود، وسنأفر فوراً للتزوج وسط أهلك
وجيرانك، ونُمضي أجمل أسبوع عسل ثم نعود..
أنا ملك يديك، لو طلبت روحي خذها فلا معنى
لحياتي بدونك..

ودعته، وودعت معه فرحتها الصغيرة التي ما
تزال جنينا تخاف أن يجهض.. ودعته بالدمع الأسود
المتهاطل بسخاء وكرم العرب.. ودعته وقلبها ينقبض
وقد سيطرت على عقلها كل الأساطير القروسطية
والخرافات الجاهلية، والأفكار التطيريّة.. متى
سيعود؟ متى؟

عادت من المطار، استلقت على الأريكة منهكة
القوى خائرة النفس والجسد، فتحت حسابها على
الفيسبوك تريد تشمم عطره من أسطره وكلماته،
تريد معانقة صورته ومغازلة أشعاره، تريد البكاء

على أطلاله.. لكن قبل أن تفتح صفحته أثارها خبر نشرته جريدة «جوغنال دو مونتريال»: (سقوط طائرة - 300-A310- Arbus - التابعة للخطوط الجوية الكندية رحلة رقم : A3400، والمتوجهة من مطار «بيار إيليو تريتو مونتريال» باتجاه العاصمة البرازيلية برازيليا، عشرون دقيقة بعد الإقلاع بسبب سوء الأحوال الجوية، وقد قضى طاقم الطائرة وكل الركاب ومن بينهم رجل الأعمال و الناشط السياسي الكندي من أصول لبنانية «عماد كرم» وأخويه وأختيه الذين كانوا مسافرين لحضور جنازة والدتهم الصحفية البرازيلية من أصل لبناني «كلود جاد» .

إنطلق صوت المضيفة قائلاً :

- بعد قليل تحط بنا الطائرة على مطار القاهرة الدولي،
درجة الحرارة في الخارج تبلغ 28 درجة مئوية، الرجاء إبقاء
الأحزمة مربوطة حتى التوقف التام للطائرة... وتأكدوا
من عدم نسيان أي شيء على متنها نلتقاكم قريباً في
رحلة ممتعة .

أمتعة... ههه.. هو متاع واحد أحد صمد...
تمنت لو عادت محملة بالهدايا من كنزات كندية وعطور
وشكلاطة، لكن للأسف تجري الظروف بما لا تشتهييه
النفوس ...

خرجت من باب الوصول شاحبة الوجه من التعب
وثقل الذاكرة المنهك...

هنا ومن باب آخر قبل خمس سنين ودعت أهلها
فرحة رغم ألم الفراق تمني نفسها بأحلام وآمال... ولكن
للأسف فكما كانت تقول ستيتة رحمها الله: «تيتي...
تيتي زي ما رحنت زي ما جيتي»...

لا زي إيه؟ ياريت زي ... ده أسوأ وأسوأ ...
مطلقة بلا زواج (عقد)، ثيب يفترض أنها عذراء...
وأين؟

في مجتمع يعشق سفك الدماء، فمن لم يسفك دم
امرأة على فراشه لم يعيش، وكأن تلك الثانية هي المنى
وذروة المنتهى، وكأن تلك البكر لن تغدو ثيباً أبداً... بل
يتمنى أنه كلما مزقها نبت لها غشاء جديد كي يحتفل
بفحولته ورجولته وفروسيته ...

إننا قوم كتب علينا الغزو وسفك الدماء و جمع
الغنائم... و لو بطريقة أكثر تحضراً من أسلافنا .

ها هي في طريق عودتها لتلك القرية المنسية، الساقطة
من كتب التاريخ والجغرافيا، تلك القرية الراقصة فوق
حزنها... تعلن عن قهرها وغيضاها وترثي عنفوان مجدها
الواعد الضائع... تذوب ملامحها في دماء أبنائها الهائمين
بجثًا عن إكسير السعادة خارج أسوارها الكثيبة وعالمها

المدنّس بكل أنواع الرجس المشقّر المعبأ بغيار الفناء
والياس والإحباط...

قرية تقتل إنسانية الإنسان وتحوّله إلى مخلوق بيولوجي
محض... لا يعرف من الحياة إلا الأكل والنوم والتناسل لمن
استطاع إليه سبيلا... جو خانق يشوّه الأحلام ويحيلها
خرافات صعبة المنال...

حين تدق طبول الغياب وترقص أشباح مشوّهة
الملامح على أنغام طقوس سادية وأعراف بوهيمية تلتهم
الأمل التهاما وترشف أرواح أبنائها ممزوجة بقطرات عطر
القرنفل النبات من رماد الفرحة. ذلك الفرحة الذي قضى
حزنا على قصص لم تكتمل، وخوفا من لعنات ترسلها
الشمس عبر ضوء القمر...

تمد تلك القرية أظافرها الطويلة لتحفر حكاياها على
الوجوه المتزاحمة أمام الشبايك والجثث المتهالكة على
كراسي المقاهي وتحت الأشجار في قيلولات الصيف
الملتهبة، تنتظر فرجا قريبا، ويصبح اليوم أمس ويمضي إلى

الركن المنسي.. و«سنثا كلوز» يزور كل القرى والمدن المعمورة إلا تلك القرية ينساها فلا يأتي..

استقبلتها أمها بأحضان وأشواق لن تعدمها خطايا الكون كله... قلب الأم وطن لا تغلقه الذنوب والخطايا... أما أبوها فتظاهر بالقوة والبرود لكن ما فتى أن أخذها في حضنه الدافئ باكيا:

- ليه يا فردوس، ليه؟

ما ذنبها؟ زواج عرفي؟ أولستم قوما تقدسون الأعراف؟ لم هذا العرف بالذات مذموم؟ حب وارتباط نوته رسميا فسبقتها المنايا وخطفته منها؟ من يدري ربما لو لم يقترب منها ما حدث له ما حدث...

لعنة فرعونية سلطت عليها وتعدتها لمن يحاول الاقتراب منها... أليس من يحاول تشريح الفراعنة يصاب بلعنتهم؟/...

*** يعتقد البعض بأن أي شخص يزعم مومياء

لشخص مصري قديم، خصوصا لو كان فرعون فعليه لعنة. وقد تسببت هذه اللعنة التي لا تفرق بين اللصوص وعلماء الآثار الحظ السيء أو المرض أو الوفاة.

ومنذ منتصف القرن العشرين، ناقش العديد من الكتاب والأفلام الوثائقية تلك اللعنة الناجمة عن أسباب علمية تفسيرية مثل البكتيريا أو الإشعاع. ومع ذلك، فإن أصول الحديث للحكايات المصرية عن لعنة المومياء وفي المقام الأول في الثقافات الأوروبية، والتحول من السحر إلى العلم لشرح اللعنات، وعلى تغيير استخداماتها من اضطراب القتلى لتسلية الجماهير في فيلم رعب، تشير إلى أن اللعنات المصرية في المقام الأول ظاهرة ثقافية وليست علمية.

على سبيل الحصر، ثمة حالات عرضية من اللعنات القديمة الحقيقية تظهر داخل أو على واجهة قبر، كما هو الحال بالنسبة للمصطبة (مدفن مصري قديم) من خينتيكا أخي من السلالة السادسة في سقارة.

ويظهرون على ما يبدو كتوجيه مباشر نحو الكهنة لحماية المقبرة بعناية والحفاظ على طقوس الطهارة بدلا من التحذير من اللصوص المحتملين.

ورغم ظهور قصص اللعنات التي تعود إلى القرن التاسع عشر، فإنها تضاعفت في أعقاب اكتشاف هوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون. لكن لم يكن هناك لعنة خطية حقيقية موجودة في قبر فرعون. وقد تم النظر في الأدلة لمثل هذه اللعنات المتصلة بالملك توت عنخ آمون لتكون ضئيلة بحيث يتم النظر إليه كـ «فخ التصفيق المحض» من قبل دونالد ريدفورد***

أما الجيران فأسرعوا مرحبين مهنيين مزغردين بعد الخبر الذي أشاعته أمها أنها عادت تحمل شهادة كبيرة... كبيرة جدا لم يسبق أن حازها أحد أبناء القرية وقد تُوظف بها وزيرة أو سفيرة... وبدأ أهل القرية يخاطبون ودّها كي تكون بنت أصل وتحقق طلباتهم عندما يتحقق المراد المرتقب.

لكن المراد لم يتحقق... وبزرت أمها ذلك بقلة الحظ
والواسطة والمحسوبية والرشوة وبيع الأجساد... ونحن عائلة
شريفة نموت جوعاً ولا ندوس المبادئ- قالت الأم...
فكان الجيران دوماً يواسونها بالجملة نفسها:

- الله كريم يا أم الدكتور فردوس.

ووظفت فردوس معلمة لغة إنجليزية بمدرسة القرية،
حيث السّام والصّجر والضّجيج وصراخ الأطفال وشجار
النسوة الممزوج بالأناشيد وبصوت الآدان وبيكاء المآتم
وزغاريد الأفراح... بانوراما أصوات مختلفة الذّبذبات
والاتجاهات و المصادر.

وعاد آدم يطارد فردوسه الضائع... عاد ابن عمها-
مغاوري- يطاردها عارضاً حبه الذي لازمها من الصغر
ولم يحرك في أنوثتها ومشاعرها شعرة... وبعد أن أحببت
وعرفت غيره، أكيد ازدادت منه نفورا...

وبخلاف مسألة الحب والعواطف المنعدمة، فإنها لا
تريد التورط في زيجة قد تنجب منها مخلوقات مشوهة

أو عالة على الحياة تملؤها عقد النقص والإحباطات في عالم لا يرحم المختلفين والضعفاء، فما بالنا بالمختلفين عقلياً...

ثم ترى لم لم يحرم دينها هذا النوع من الزواج العائلي الذي ينتج عنه غالباً أطفالاً معاقين ومشوهين ومرضى... ولم ينه مجرد نهي عنه؟/

***تؤكد معظم الدراسات العلمية أن الزواج اللحمي الداخلي أو ما يصطلح عليه علمياً الاندوجامي أو الأندوغامي هو السبب الرئيسي والأهم في الأمراض الوراثية الشائعة، ومن أبرزها أمراض هيموغلوبين الدم «خضاب الدم» والعيوب الخلقية الاستقلابية والأمراض أحادية الجينات الشائعة، وكشفت العديد من الأبحاث العلمية التي أجريت حول زواج الأقارب أن الإصابة بتلك الأمراض والإعاقات لدى الأطفال من أبوين قريبين واضحة حيث تكون الفرصة أكبر لدى الزوجين من الأقارب في حمل صفات وراثية متنحية عندما يكون كل واحد من الأبوين حاملاً

للصفة المسببة للمرض، وتؤكد بعض الدراسات أن
75 % من الإعاقات سببها هذا الزواج***

هل كان الدين متشدداً فقط في منع زواج المرأة من
غير المسلم؟ ولم المرأة؟ لم يحق للرجل الزواج من مسيحية
أو يهودية والمرأة لا؟؟ والآية التي تحرم ذلك تحرمه على
الجنسين ، لم يُستثنى الرجل وتعد المسيحية أو اليهودية
كتائية ويحق له الزواج منها ... ويعد المسيحي أو اليهودي
مشركا وليس كتائيا... كل هذه الأفكار جعلتها تتذكر
حبيبها الرسام الكيكي الذي أصبح مشهورا عند ابتعاده
عنها، ربما لو استمرت علاقتها به لتكهرب وأصابته
لعنتها.

القرية اليوم مقلوبة على رأسها ... الكل ، نساء ورجال و أطفال يركضون في الدروب والحقول للتفرج على الفرقة التلفزيونية التي جاءت خصيصا لتصوير ذلك البيت المهجور المسمى بالبيت الملعون... الذي يشاع في القرية أن شبعا يسكنه ويخرج كل منتصف ليل ليجوب دروب القرية باكيا، قدم المخرج المكرفون لكهل و طلب من الرجل أن يسرد عليه الحكاية:

- قال الرجل: «سكينة» فتاة مسكينة يتيمة الأم ومنكسرة الجناحين... ربنا يرحمها ويشبش التربة إللي تحت راسها... كانت تعيش مع والدها هنا في هذا البيت بالأحرى الكوخ، حيث كان والدها حشاشا يقضي جزءاً من نهاره يجري وراء الخرفان والحمار، وفي المغرب يضاجع أحدهم ثم يتجه للمقهى يشرب الحشيش ويلسن على مؤخرات وصدور نساء القرية، ولا تسلم من لسانه حتى العجائز وزوجة شيخ الجامع. وكان يضرب ابنته المسكينة «سكينة» بنت السادسة عشر، لأتفه الأسباب ويجبسها ويمنعها عن الناس...

وفي إحدى الليالي عاد في الفجر مسطولا فأنقض على فلذة كبده وراح يلثم جسدها الطفولي الناضج قبل أوانه كما يفعل بخرافه وبرفيقته الراقصة «شوشو».

ولم تدر المسكينة إلا وهي تنهال على رأسه بقلة طينية فأردته قتيلا - حسبما اعتقدت - ثم بدأت تجري وتنزف وتجري وتنزف إلى أن وصلت التربة فرمت نفسها فيها، وأخرجوها في صباح اليوم التالي جثة منتفخة هامدة. أما الوالد فلم يمت واكتشفته الجارة...

- قاطعته امرأة عجوز قائلة : ما هو أنا الجارة حضرتك يا بيه...

فأعطاها المذيع المكروفون، فسردت:

- ذهبت كعادتي أطل على الفتاة، لأن أمها وصتني عليها وهي تحتضر، وهي مسكينة مقطوعة إلامن خالة وقطعت رجلها عن هذا البيت نظراً لسوء معاملة صهرها ونظراته غير البريئة لها... لا علينا، حملت لها بعض الفطائر الساخنة ودخلت فإذا بي أصدم برؤية الرجل

الغارق في دمائه والفتاة التي لا أثر لها. وتبين لنا أنه لم
يمت لكن حكم عليه بالسجن بعد اعترافه بما حدث...

أما الفتاة فدفنت لكنها كل ليلة تخرج من قبرها ملفوفة
في كفنها وتتمشى في شوارع القرية وترمي بحجارة ساخنة
محرقة كل من تصادفه، وحتى بعد هدم الكوخ وبناء عمها
منزلا مكانه أصبحت تدق أبواب المنزل وترميه بالحجارة
وتشعل النار في أشجار الحديقة... فأحضروا الشيخ
والرقاة بلا فائدة فغادرت العائلة المسكن وظل البيت
مهجورا...

قدم المذيع المكرفون لفتاة سائلا:

- هل سبق أن رأيت الشبح؟

- قالت: وهل أنا رَجُل؟ الرجال وحدهم من يخرجون
قبل الفجر ويعودون بعد المغرب... والأشباح لا تخرج
إلا بين هذين الوقتين...

ثم سأل المذيع شابا مفتول العضلات:

- هل تخاف الشبح؟

- فقال: مَنْ لا يخافه؟ حتى شيخ الجامع والدكتور
وحيد طبيب المستوصف يخافانه...

انتبه المخرج لفتاة تمر أمامهم لباسها يختلف عن لباس
باقي الفتيات تمشي بكبرياء ولم تلق مجرد نظرة على
الجمع، فاقترب منها قائلاً:

- ممكن كلمة يا أنسة؟

- آسفة ليس لذي وقت.

فزادته لا مبالاتها إلحاحا:

- من فضلك لن آخذ من وقك الثمين أكثر من خمس
دقائق.

- قالت على مضض: تفضل.

- قال: هل تعرفين قصة الشبح؟

- وأعرف الشبح ذاته- قالت.

- قال باستغراب: هل سبق لك أن صادفته؟

- قالت: أقصد الفتاة التي ماتت غرقًا ويقال إنها تخرج من قبرها وتدق الأبواب وتضرب الناس بحجارة نارية... كانت صديقتي في الابتدائي، ثم أوقفها أبوها عن الدراسة وحبسها في البيت إلى أن حدث ما حدث.

- وهل تؤمنين بالأشباح يا آنسة؟

- وما يفيدك إيماني أو كفري؟ ثم أنا ماعدت أوؤمن لا بأشباح ولا بملائكة... وإن كان شبح سكينه يجول القرية لم سيؤذي الناس؟، وهي كانت فتاة طيبة بريئة مسالمة لاتؤذي نملة... إلا إذا كانت تفعل ذلك انتقاما لنميمتهم و أكاذيبهم و....

- قال: ولكن، لو لم يكن الشبح حقيقة كيف تؤمن به كل القرية؟

- قالت: وهل كل ما يؤمن به الناس حقيقة؟.. يولد

أبناء القرية فيلقنون أفكارًا على أنها حقائق مطلقة لا ريب فيها ويربون وينشؤون على أنه لا يحق لهم مجرد حق التشكيك أو التفكير وطرح القضية على العقل والمنطق، وأن مجرد التفكير أو التساؤل سيجعلك تتعرض لسخط القوى الغيبية والخرارق والأرواح... وكثيرا ما يؤذى فعلا أشخاص يزدرون أعراف القرية ومقدساتها، ربما ليس بسبب الارواح ولكن بسبب الوسواس وعقدة الذنب التي تضعف أعصابهم وتجعلهم فريسة لأمراض جسدية وعقلية...

منذ ذلك اللقاء أصبح المذيع «أكرم» يتردد على القرية فقط ليلقي السلام على فردوس أو يتفرج عليها وهي تودع تلاميذها عائدة لبيتها...

سأل عنها وقيل له أنها فتاة من عائلة طيبة وشريفة، أكملت دراستها بكندا وعادت بشهادة كبيرة تخولها لمنصب عال جدا، لكن حظها وأحوال البلاد التي تهمش المستحقين جعلتها تكتفي بوظيفة مدرسة...

كلما سأل عنها سمع نفس الحكاية، يبدو أن سكان القرية يقدسون «فردوس» كما يقدسون أشياء كثيرة أخرى... أما هو فكان يردد دوما نفس الجملة وهي:

- جميلة و أنيقة أيضا وتستحق مكانا أحسن من هذه القرية... فيضحك بينه وبين نفسه عندما اكتشف أنه أصبح ببغاء مرددا كالبقية، صحيح من عاشر قوما...

وتفشى الخبر في القرية كالنار في الهشيم... المذيع الوسيم ابن القاهرة مهتم بالأستاذة الكبيرة أكيد سيخطبها... وهنا جُنَّ جنون ابن عمها مغاوري وأعمته الغيرة، أبعدها كل هذا الانتظار يفوز بها القاهري؟ كلا لن يكون... لن يكون... فاعترض طريقه في إحدى المرات وقال له:

- هل تنوي خطبة ابنة عمي فردوس؟

- إن توافقت أفكارنا ومشاعرنا لم لا؟

- هل حدثتها؟

- ليس بعد، ولكن بما أنك ابن عمها أكيد أنت

- تتمنى سعادتها وقد تكون فاعل خير، وترتب لنا لقاء.
- أكيد ولم لا؟ لكن أليس ضروريا أن تعرف كل شيء عنها قبل ذلك؟
- أكيد وما هدف لقائي بها؟
- ضحك مغاوري ضحكة خبيثة أبدت أسنانه غير المتناسقة وقال:
- وهل تظن أنها ستقول لك كل الحقيقة؟
- لم لا؟ وهل حقيقتها مخزية؟ وإذا كان فكيف عرفت أنت دون باقي أهل القرية؟
- أنا ابن عمها وساكنين منزلين متجاورين وأسرارهم كلها عند عمتي التي تعيش معهم وأسرار عمتي عند أمي، وأسرار أمي طبعا عند ابنها حبيبها...
- رد المذيع بضجر واضح: هات ما عندك دون مقدمات طويلة ومملة.

- أنا ممل؟ ربنا يسامحك يا بيه؟

- أووووف تكلم وإلا دعني أمضي بسلام.

- أنت متحمس يبدو أنك أحببتها فعلا.

لم يرد المذيع عليه وأدار مفتاح تشغيل سيارته... وهنا أحس مغاوري أن الصيد الثمين ينزلق من بين يديه وربما لن تسنح له فرصة أخرى... وقال في نفسه:

- السماء لا تمطر فرصا ذهبية، لذلك من جاءته الفرصة فليستغلها ولا يؤجلها، ثم يقضي العمر بيكي على أطلالها... فقال بترج :

- والنبي لا تغادر، سأخبرك حالا، فردوس التي أنت طائر بها ذهبت لتتم دراستها بكندا لكن للأسف لم تفعل بل توقفت عن الدراسة وتاهت في دوب العشق والانحلال والعلاقات، وكما ذهبت عادت، بل الأدهى أنها ذهبت عذراء فعادت... هههه بعيد عن ولاياك... وتدعي أنها تزوجت عرفيا... مالفرق بربك بين ما يسمى بالزواج العرفي وال....

- قاطعه المذيع: أرجوك توقف، لا أريد سماع المزيد...
وأدار المحرك وانطلق.

أما مغاوري فانطلق سعيدا يغني: اتمخري يا حلوة
يا زينة... وفي مدخل البوابة المشتركة بين المنزلين صادف
فردوس فنظر إليها وانفجر ضاحكًا...

طول الطريق كان يفكر:

- ماذا حدث لي، ومن هي تلك المرأة حتى تهزني
أخبارها؟!... ألم تكن مجرد عابرة سبيل غريبة؟، أنا الذي
تتقرب النجمات لي، وتخطب ودي أرقى السيدات أهتز
لفتاة قروية لا أعرف عنها إلا ما تتداوله ألسنة الفلاحين
السذج من هراء وخزعبلات، وما أكثر خزعبلاتهم
وتخاريفهم وأساطيرهم ومساطيلهم بمخدر وبدونه.

ولكن شيء غريب يثيرني ويشدني إليها، ففي عينيها
سحر غريب وفي صوتها جاذبية، ليست أحلى النساء
ولا أبهائم، لكن هي... هي... هي وحدها فردوسي
المفقود...

وماذا لو كان كلام ابن عمها صحيح؟ ولم يكون صادقا؟ وربما فعلا هي مطلقة، وهل هو ذنبها؟ ولم الحيرة؟ غدا أذهب لمقابلتها وسأسألها، لكن بأي صفة سأسألها أسئلة شخصية كهذه؟ محرج محرج... سأواجهها وأخبرها أنني أحبها وعازم على الارتباط بها...

فردوس كانت أيضا تفكر فيه:

- غريب أمر هذا الرجل لم يسأل عني؟ أظنه... لا، أعوذ بالعقل الحكيم من الحب اللعين، ألا يكفي ما قاسيت... لكن هو رجل تتمناه أية فتاة... هههه... فتاة ليس مطلقة مثلي، ولكن هل أصلا أنا مطلقة؟ لا أدري ما سيكون حكمه على زوجي العرفي... مالي أنا ما الخطب من هو؟، ومن يكون وما أدراني ما نوياه؟

صدقت الشاعرة حسيبة طاهر إذا قالت:

الراحلون موتى دفنونا وانسحبوا
والقاصدون لمرافئنا قطاع مشاعر

متربصون بأمانينا
غادرتنا أشياءونا الأليفة
وما خلفت لنا غير وحشة رهيبة

ألوان الريح وريح المطر
تتراقص على عتبة الفجر الغريب
عن أعين نمت في ظلام المدينة
عن أرواح تجلّدت داخل منافئها
تناسخت تفسّخت ما يدرينا؟

ألا أيها الراحلون خذوا كل متاعكم
وغادروا محملين بأكاذيبكم
كما جئتمونا ذات غزوٍ بنصركم مزهوين
قد عقمتم مشاتل أفراننا الصغيرة

فخذوا ذكراكم وتاريخ سطوكم
وأساطير بطولاتكم
حكاياكم ما عادت تعيننا
خطاياكم حفرت بالشوك على نواصينا
فأي طلاس سترقيننا... وأي ترياق سيشفيننا
وأى وطن بعدكم سيأويننا؟
ثم قالت في نفسها: سأنام أحسن لي، على رأي أم
كلثوم:

حب إيه الي أنت جاي تقول عليه
هو أنت قبله عارف معنى الحب إيه
لما تتكلم عليه!

آآآه منك يازمن... آآآه بين ماض يشلني وحاضر
يشدني... تمض بي الحياة مرة تحضني وأخرى تركلني...
مارد يعيش في أعماقي يكبل تجدد ذاتي ويعبث
بميكانيزماتي... تلبسني الأفكار وتتعلي الأقدار...

قناصة اللا وعي متربصة لِوَأدِ أي ومضة عابرة محتشمة
كانت أو سافرة... أين المفر من جذور في أعماق الروح
ضاربة... أين المفر من لقاح سبق لبن الأم للأوردة...
منحتني الأقدار روحا نائرة تصارع عوالم جائرة على أرض
سادية... للدماء متعطشة وعلى الجثث متلهّفة...
وحياة عن العدالة مضربة... كأن آلهة الشر بلا رقيب
عابثة... أي قربان يرضيها؟ وأي رشوة ستغويها؟. أي
فتنة تلهيها؟...

أطفال ما عرفوا يوما حضنا... نساء ما عرفت يوما
بعلا... مجانين... عميان... جياع... حر وقر...
ومن المصائب كر وفر... مؤمنون وكافرون أمام رحي
الشر متساوون... منهم طاعمون آمنون... وآخر
أحياء يدفنون... فمن المبتلون ومن المنقومون؟؟؟

أعلم أنكم مثلي لاتعلمون... مسكين هو عقلي
الأحمق راح يسألني إذ رمت منه إجابة ونسي أنه قائد
فكري وبدونه ألقى الجنون... وهل يسأل عاقل مجنون؟؟
نعيش دوما و كأن هذه اللحظة عابرة ومؤقة ومقدمة

للحظة القادمة، كأن اليوم مقدمة للغد وكأن الآتي أفضل من الحاضر، وبعد لحظات يصبح الحاضر ماضٍ فنحن له و نبيكه ،الحاضر دوماً مظلوم، فالإنسان يعيش بين حنين لمفاتيح وتطلع لما هو آت ...، والحقيقة أن حياتنا هي اللحظة الآنية التي سنندم على فواتها ونرثها ونحن لها غداً، فعش وكن سعيداً الآن و لا تنتظر إلى الغد فقد يأتي الغد و قد غدوت ذكرى مرثية و على الغالب منسية...

دائماً يتوهم الإنسان أن اليوم مجرد طريق عابر والغد هو الأهم، ويصل الغد ولا نجد السعادة و الراحة التي صبونا إليها و ضحينا بالأمس لأجلها... فلا يوجد طريق يؤدي للحياة الحياة ذاتها طريق بعضه معبد و بعضه وعر و موحل ، ولا توجد محطة هي الهدف، فبعد كل محطة نواصل السير و الكفاح من جديد المحطة الوحيدة هي الموت . لكن كيف السبيل للعيش الرغيد والماض يسكن الحاضر و يحتجز الآتي؟؟، كيف السبيل للعيش الرغيد والناس لا ترحم ،و الذاكرة لا ترحم ،والأقذار لا ترحم لو كانت الذاكرة تغسل أو ترمى وتستبدل بأخرى جديدة لكان واقعنا أرحم وعالمنا أجمل ، لكن للأسف الذاكرة

تتعفن وعندنا تصبح الذاكرة عين حمئة ضحلة لغروب الحقائق الساجدة لمردة الزيف ... وتجار الضلال الهاربين من مواجهة ضوء الشمس الساطع على الأرقمة الغابرة في الطلاسم، المخضبة بالخبير السري و الدم المراق لحفظ خزائن الكنوز المزيفة، من أعين الفضوليين و المتطفلين الباحثين عن السر الأعظم ... عندما تصبح الذاكرة عملة ذات وجهين متنافرين من النقيض إلى النقيض ... عندما يسكن الروح غرس متجذر في أعماق الذات يتغذى من دمننا ولحمنا ويهيمن على سير حياتنا ويضعها في قالب حديدي وحصن شائك ... عندما تصبح الذاكرة المثقلة بالهم والوهم عائقا أمام السير والمضي قدما لفتح النوافذ الصدئة ليدخل نور الشمس المحتجز عنا من العهد الغارق في غياهب اللاحقية ... عندما تتجلط الأفكار في رؤوسنا وتصيبنا بسكتة عقلية دائمة ... عندما يترصد بنا قناصون يصوبون السهم نحو كل رأس تطل من ثقب الأمل الخابي تحت رماد أرواحنا وهشيم ذواتا المحكوم عليها بالموت في مهدها ... إذ ذاك كانت حياتنا مشروع موتنا ... إذ أننا مخلوقات تولد فقط لتموت ... و الموت أسمى أهداف الحياة في عرفنا .

في اليوم التالي كان أمام المدرسة ينتظرها، وعندما خرجت طلب منها أن تركب السيارة بجواره.

- نظرت إليه في ذهول وقالت: آجنتت؟

- قال: ألم يسبق لك ركوب سيارة مع رجل؟

- قالت : بلى... ولكن،.....

- قاطعها: ولكن ماذا؟ نحن هنا في قرية صغيرة والعيون متربصة ببعضها والاخبار الصادقة والكاذبة تنتشر انتشار النار في القش... آ،،، إذن المكان هو المشكلة، لو كنا بمكان آخر كندا مثلا... مثلا فقط... لكنت بين أحضاني الآن وربما أنت من فتحت سروالي...

لم يكمل كلامه إلا وقالت له ببرود:

- حقير منحط...

ومضت بوجه متجهم ودموع بالكاد حبستها في أحداقها. وأخذ هو يحدث نفسه:

- ما أغباني شرير أنا أحق حطمت نفسي وحطمتها
مسكينة مسكينة هي.

وفي اليوم التالي كان ينتظرها في نفس المكان قرب
المدرسة، لكنها بمجرد أن رآته أشاحت بوجهها عنه،
فتوجه ناحيتها قائلاً:

- أحبك يا فردوس، أحبك...

- ولكنها هتفت: عم إدريس، عم إدريس أرجوك
تصرف مع هذا الشخص إنه يضايقني يومياً.

جاء العم إدريس حارس المدرسة يجري رافعا جلبابه إذ
بانَت ساقيه النحيلتين وقال:

- ما هذا يا أستاذ لم تضايق الأستاذة فردوس؟، عيب
عليك باين إنك ابن ناس، أرجوك لا تضطرنى لمهاتفه
شرطة المخفر.

- لم أرد بها سوء والله، أحب فقط محادثتها.

- العم إدريس: إسمع يا ولدي نحن هنا في قرية صغيرة
و الناس لا ترحم والبنت الذي بها يكفيها، وإذا كنت
جادا فتوكل على الله و أخطبها.

- رد باستهزاء: دون أن أتعرف عليها؟ الدنيا تغيرت
يا عم. هل أنتم من أهل الكهف؟

- عم إدريس: أهل من؟ أي كهف؟

تركه مذهولا وانصرف حتى وصل إلى بيته الفخم يقطع
المكان ذهابا وإيابا، ولاحظت أمه قلقه وانفعاله غير
المعتاد... فسألته فقص لها كل ما حدث كأنه كان يفعل
ذلك عمدا كي يثير اهتمامها وتسأله.

- قالت له أمه: ليس المشكلة أنها تزوجت بعقد أو
دونه، المشكلة ما ذنبك أنت تتزوج امرأة مطلقة وأنت
شاب في مقتبل حياتك وأول حظك، إذا كان حتى
الرجل المطلق أو الأرملة يأخذ بنت العشرين العذراء،
تأخذ أنت بقايا عبث غيرك؟

أمسك رأسه بين يديه وقال: ما هذا؟ أمي المثقفة
المتحررة رئيسة جمعية الدفاع عن الأرامل والمطلقات تقول
هذا؟ فعلا لم أعد أثق بأحد، كلكم مخادعون، منافقون...
تقولون ما لا تفعلون مجتمع ملعون ملعوون....

في نفس المكان والزمان كان ينتظرها شاحب الوجه،
وما إن رآها حتى شدها بعنف إليه واعتصرها بين ذراعيه
قائلا:

- أحبك فردوس، أحبك،

وأطبق بشفتيه على شفتيها فأحست برعشة، لكنها
انتفضت ودفعته بعنف ماسحة شفتيها بيدها وصرخت:

- اطلب الشرطة يا عم إدريس.

وما هي إلا دقائق حتى كان في قسم الشرطة يمضي
تعهدا بعدم التعرض لها ثانية.

عاد إلى بيته مهموما حزينا وأخذ يرشف قهوة،
القهوة سوداء... لكنها صادقة... صادقة... لا تتقنع

لا تتلون كالحرباء... الجريدة رمادية والأخبار صفراء،
بعضها حمراء، وآخر سوداء تسبب السوداء... الذاكرة
مكتظة ... غليان تبخر فإمطار، تساقطت قطرات
شديدة الملوحة، تراود الأحرف عن نفسها .. قررت
الكلمات الانتحار حفاظا على عفتها من أعين سادية
شرسة تتحرش بمآسيها... هبت رياح عاتية طيّرت أوراق
الجريدة وتركته وحيدا... أسرع برشف قهوته ليقرأ رواسب
فنجان يعي أنه كاذب كالشتر يتسلى بخزعبلاته ويتسلى
الفنجان بسخافاتة، أغلق النافذة حتى لا يطير الهواء عقله
كما طير أوراق الجريدة.

أما فردوس فظلت ساكنة لا تتكلم لا تأكل لا
تشرب... فمن يراها يحسبها خشبة، دمية، مومياء
فرعونية قديمة تحمل في تعاليم جسدها الميت ثقل حضارة
بشرية ضخمة، بنجاحاتها وكوارثها، بأفراحها وأحزانها،
بجنونها ورسانتها...

لم فعلت هذا، كان بإمكانها صده بلطف... لا يهم،
الرجال كلهم ذئاب شياطين، وإن وجد ملائكة فهم لا

يستمرون بل يموتون، يموتون بأبشع الطرق، ويظل البقاء للأشرس والأبشع.

أما هو و أمام هذا التطور غير المتوقع للأحداث، لم يجد حلا إلا أن يتخذ قرارا حاسما ويتقدم لخطبتها.

اعترف له والد الفتاة بكل شيء :

- لم تكمل الدراسة، بل تزوجت عرفيا من شاب تونسي خدعها وهجرها... ثم خطبها شاب لبناني فمات قبل العرس بأيام في حادث طائرة مروء، عانت بعده اضطرابا عقليا خطيرا لكن شُفيت والحمد لله...

تمت الخطبة، وكان الرجل رائعا متحضرا خلوقا طيبا، ويحبها بجنون... وهي سعيدة، سعيدة جدا لدرجة الخوف، فلم تتعود على النهايات السعيدة لقصصها، وتحس بعذاب وعقدة ذنب: كيف تسعد ومن عاهدته على الحب والوفاء إلتهمته الديدان؟!... لكن الوحدة صعبة والطريق بلا رفيق موحش، والحياة طريق، ويا له من طريق، فلتكف عن جلد نفسها ولتحي كالأسوياء.

كانوا يحضرون للعرس بعد عشر أيام، بمجرد انتهاء العام الدراسي ستودع تلاميذها وتزوج، وتودع هذه القرية الكئيبة إلى الأبد، لن تعود لها إلا زائرة.

كانت تغادر المدرسة إذ اعترض طريقها قال : إركبي.

- قالت: أطلب الشرطة يا عم إدريس.

- قال: بل أطلب المأذون يا عم إدريس.

- قال العم إدريس بطيبة القروي: ربنا يهنيكوم ويسعدكم يا أولاد.

- قالا معا: تعيش يا رجل ياطيب.

وانطلقا بالسيارة يتجولان ولم يعودا إلا مع وقت العشاء محمّلين بأكياس الهدايا والمشتريات تحضيراً للعرس، وأطلقت عمّة فردوس زغرودة إمتزجت بصوت المؤذن لصلاة العشاء، وتعشوا معاً ثم هم أكرم ليغادر، فقال له أب فردوس:

- لم لا تقضي الليل يا إبنى هنا، كلم الوالدة بالهاتف
ونم عندنا وغدا سافر، الطريق مظلم ولا أحد يضمن
خلوه من أبناء الحرام.

- رد عليه: لا... يجب أن أرحل، عندي تصويرا
باكرا، فيلم يجب أن أنهيه قبل الزفاف.

- قال: تفضل يا بني الله يحميك.

أما فردوس فتجهم وجهها وكادت تترجاه للبقاء.
لكنها لم تفعل خجلا من أبيها، ولحقت به لتودعه في
الحديقة فالتقت شفاههما برجفة كأثما القبلة الأخيرة...
وعندما أمسك يدها كانت باردة جدا وفجأة انفصلا
على حفيف صوت شيء يتحرك بين الاشجار في الظلام
الدامس.

ودعها وأدار محرك السيارة وانطلق، ووقفت تودعه
بنظرات بائسة وهي تردد قصيدة أحست أنه كتبت
خصيصا لها:

مثقلة أنا بهمومي
أمضي العمر أغازل جنوبي
وأعزف آنا تي لحنا يراقص العشاق
وبواسي كل حزين ومشتاق
ولذاتي ما وجدت من ترياق
تغذييني الطنون وتراودني الشجون
فلا تحمّلي ذنوبًا على ذنوبي
كاهلي أثقلته الخطايا
ومنها براء أنا وأنايا
براءة الذئب من دم ابن يعقوب
مذنبه وما أدري ما اقترفت يداي
ما نحن إلا ريش في مهب الأقدار
وأرواح تائهة عبر الدروب
ما دام لنا غصن ولا اخضرار

فلا تحاول عزف سمفونيتك على أوتاري
صدئة هي فحداري
لا تتخذ مواقع للسمع خلف جداري
منيع هو حصن مشاعري و أسراري
يا ساريا بين أفكاري
يا حادي صمتي وإجهاري
لا القرب يشفيني ولا البعد يرضيني
فلتكن روحك وطنا ياويني

كانت فردوس ترتدي فستان العرس وبجانها أكرم
بوجه مشرق والزغاريد والورووود، لكن الغريب أن أكرم
ارتدى بدلة بيضاء على عكس العادة، ربما تفاؤلاب
اللون لأبيض، أما فردوس ففستانها أسود وغطاء الوجه
أسود... ربما لأن المنظر كان سيبدوا منفرا لو ارتدايا
الأبيض معا.

اختلط صوت الزغاريد برنين هاتفها... فتحت

عينيها، فدق قلبها، من يتصل هذا الوقت؟، كانت أم
أكرم قلقة تسأل لأنه لم يعد للبيت، فبهتت فردوس ولم
تجد جوابا... .

وبعد مرور ثماني وأربعين ساعة بدأت حملة البحث
عنه، ولم تطل رحلة البحث حتى وجدت السيارة مقلوبة
في منحدر والرجل فاقد للحياة.

واتضح فيما بعد أن الحادث وقع بسبب تمزق الفرامل،
وعد قضاءً وقدرًا، إلا أن فردوس وحدها كانت تعرف
اليد الحقيقية وراء ذلك، وأيقنت ألا مفر لها من قضائها
المحتوم...

متعبة هي، متعبة من الحب، من المغامرات، من
المشاجرات، من الأحزان، من كل شيء، تبحث عن
السلام عن الاستقرار، وليكن مغاوري محطتها الأخيرة...
ليس عن اختيار ورضى وإنما إذعانا للقدر.

ألا يقال المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين؟

وهي متأكدة أنه كتب على جبينها وبالخط العريض
قاتم السواد/ مغااااااوري/، خصوصا بعد أن شاع بين
الناس أنها فتاة منحوسة ونذير شؤم وأن كل من ينوي
الزواج منها سيموت.

قالت في نفسها أنها سترتبط بمغاوري لأنه عكس كل
تطلعاتها عسى القدر يهدأ ويتوقف عن الانتقام منها
لذنب لا تعلم عنه شيئا.

قد تصدق عليها نظرية تناسخ وتفاسخ الأرواح، ومن
يدري؟/

التناسخ أو رجوع الروح إلى الحياة بجسد آخر،
فكرة فلسفية ودينية وعلمية مرتبطة بالجسد والروح
والذات. وهو عملية روحانية لتحسين الذات عبر
الخبرات والتجارب لكل تناسخ.

الاعتقاد بالتناسخ وتكرير الخبرة الدنيوية جاء عن
طريق معتقد رجوع الروح باجساد أرضوية من الأديان
القديمة مثل الفرعونية واليونانية والهندوسية والبوذية،
وبعض الديانات الإبراهيمية. حيث يعتقد أن الروح
الفاضلة تمنح حياة أفضل من السابقة، والروح المسيئة
المذنبه تمنح حياة أسوء وقد تمسخ في جسد حيوان أو
نبات أو حجر

قررت ألا تحزن لا تكتئب، قائلة في نفسها:

- ما فائدة ذلك؟

فقط ستمرد على رغبتها ومرادها، عن أهوائها وميوها
وتنسى كل تطلعاتها ألا يقال: القناعة كنز لا يفنى؟ لن
تكتفي بالقناعة، بل ستخنع وتخضع...، ما تكون هي؟
مجرد حشرة حقيرة في هذا الكون العظيم، مهما علا
شأنها ستبرز برازا نتنا ومقززا، ستموت وتتعض وتأكلها
الديدان، مخلوقات قدرة تحاول التجميل والترفع... فلتدع
الأقدار تفعل ما تشاء.

وتزوجت مغاوري الذي لم يكمل مراحل الأولى من
الدراسة... الذي يمارس الجنس ولا يغتسل، يأكل الدجاج
والبط ثم ينقض عليها يفترسها ويحلي بعدها بتفاحة...

ورغم محاولاتها لأن تكون وديعة ومستكينة كانت
طبيعتها النائرة المتمردة تطفو على السطح عندما تفقد
القدرة على السيطرة وكبح جماح غضبها، فتنشب بينهما
مشاجرات كبيرة تنتهي بتذكيره لها بأنه تفضل عليها
بأن تزوجها وهي ليست بكرا، وبضربها فتذهب لأمها
شاكية فتذكرها بضرورة طاعة زوجها مهما كان، و بأنها
ستحاسب وستدخل النار إذا أغضبته، وبأنه من واجبها

أن تسمح له باعتلائها متى شاء وإلا لعنتها الملائكة
وَعُضِبَتِ عَلَيْهَا ... وكانت فردوس تتساءل:

- وأين حق المرأة ومشاعرها ورغبتها وإرادتها؟

فترد الأم المسكينة المستكينة التي لم تعرف من الزواج إلا
كي الملابس ، وتلميع الأحذية وإنجاب الأطفال وإطعام
البط:

- عيب هذا الكلام... أي رغبة؟ ليس للمرأة الفاضلة
الأصيلة رغبة غير إسعاد زوجها وإرضائه... هذه هي
الأصول، وأي كلام غير هذا عهر وعار...

فكان عليها أن تحيا جسدا بلا روح، مومياء عربية
عريقة، بكل إخلاص وولاء لثقافة ومعتقدات ومقدسات
مجتمعتها التي أهمها الرجل... ووجب عليها التكيف مع
مجتمعتها، مجتمع كي يكون فيه الإنسان صالحا يجب أن
يضغط زر (ستوب) لعقله ، وكي تكون المرأة فاضلة
عليها أن تنسى أنها إنسان كامل كيف؟ وشهادتها نصف
وإرثها نصف، وهي ناقصة عقل ودين مهما اجتهدت؟

كيف وهي خلقت لتسعد الرجل وتلبي شهوته ولو كانت
على ظهر جمل؟...؟

حتى النافذة الوحيدة التي كانت تتواصل عن طريقها
مع العالم، أغلقت في وجهها بكل تعنت وديكتاتورية،
مغاوري رجل شرقي محترم، وماعدوش نساء تدخل
فايس بوك...

لم تبقى إلا الرسائل التقليدية تصل بينها وين صديقتها
التونسية «سهير» التي تزوجت من عازف بلجيكي
ملحد ضاربة كل الأعراف والمحرمات عرض الحائط، وها
هي تحي حياة بشرية مهما شابها بعض الخلل لن يكون
بحجم ما تتعرض له هي من إهانة وتحقير وضرب على يد
مغاوري المؤمن الموحد...

إلى متى ستمكن من قهر نفسها والإذعان لمغاوري
وطاعته، والطامة الكبرى أنها إذا لم تطعه فهي عاصية
ومذنبه وملعونة، وطاعة الزوج ضرورية لدخول الجنة/

*** رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف

قال: قال رسول الله ﷺ: إذا صلت المرأة خمسها
وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل
لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت***

ومن لم تدخل الجنة دخلت النار أكيد فلا منطقة
محايدة بينهما... إذن فقد كتب عليها دخول جهنم
بسبب الرجل، فلو تزوجت غير مسلم مهما كن صالحا
وفاضلا دخلت جهنم، ولو تزوجت مسلما ولم تطعه ولم
تكن له آمة جاهزة لكل مطالبه وشبقه وجوعه النهم
حتى لو استفرغت ما بمعدتها بعد كل استفراغ لما بفرجه
في أحشائها، لدخلت جهنم أيضا، ومن الغباء أن
يختار الإنسان الحالة الأكثر ضررا، فمع مغاوري هي
تعيش جحيم الدنيا ثم جحيم لآخر ، ولو تزوجت أحد
الكنديين الذين أحبوا ربما لعاشت حياة عادية وجحيما
في الآخرة... لفيكن جحيم الآخرة، فلتذهب الأعراف
والمحرمات للجحيم فلتذهب.....

حسبنا أيها الألم ما ذقنا من جور الزمان

تناثرت أحلامنا تناثر الريش باهت الألوان
تهوي الأيام بأمانينا كما تهوي الرياح بالكشبان
لاهم للقدر إلا إفناء صبانا قبل الأوان
واستبدال ألوان بالأوان
ألا أيها القدر أنصفنا هنيهة
قبل أن نغدو في طي النسيان
وتلفنا دياجي ملفوفة بفيافي
مالي أرى الآلام تتراقص
ذات اليمين و ذات الشمال
مالي أرى الفناء يهرول
في الصحو و الخيال
أين أمضي بروح مثقل الجيوب
بأفكار ونواميس عدت بين الورى عيوي
أين أمضي وإني فطرت على تأمل وتلمس

ولا أحب فرض القيود ... ولا نقض العهود

سأزين بالندى خدودي ...

وأرسم بسمة على وجه الوجود

علي أخفف بعض الكرب

عمن تعشموا خيرا في وجودي

وأزرع شتيلات أمل تناشد الخلود

وترشي الأيام عساها بفرح تجود

استيقظ مغاوري متثابا بصوت مرتفع، بدأ يتحسسها
لينقض عليها قبل الإفطار كعادته، اكتشف ان مكانها
فارغ فانتظر قليلا ربما هي بالحمام...

عندما أطالت الغياب لحق بها لاسعجالها، فحتي
الحمام كانت لا تدخله بحرية فكثيرا ما يستعجلها
لاحتياجه لها بأمر ما؛ ودائما كان ينتقد نظافتها الزائدة
عن الحدود- قائلا لها بتوبيخ:

- ما هذا... إغتسال، إغتسال، إستحمام، تكرهين

رائحة البيض، رائحة السمك، البصل.... ، إن طبخت أكلا جديدا قال : هذا تبذير لمْ طبخت ولنا أكل باق في الثلاجة؟، وإن لم تطبخ قال: هل كتب عليّ أن أتغذى بما تعشيت أمس...؟، إن نظفت البيت وربتته قال: هل سيزورنا الرئيس اليوم؟ إن جلست تتفرج على التلفاز قال: أظن أنك متزوجة هذا الجهاز الملعون، إن حملت بين يديها كتابا قال: تزوجت امرأة أم تلميذة فلتعودي للكتاب أحسن، إن استمعت للموسيقى أطفأ الراديو في غضب قائلا: إن كنت مستعدة لصب الرصاص الساخن في أذنيك يوم القيامة، فأنا لا أريد أن تعشعش الشياطين في بيتي، ومرة كسر الراديو أمامها وكذا فعل بهاتفها الخليوي متحجّجا بكثرة الرغي والثرثرة... ولما لم تحبل كان يعايرها بأنها عقيمة.

- وعندما قالت له: وما أدراك من العقيم هل زرنا طبيبا وكشفنا عن السبب؟

- قال لها بغضب جنوني تقصدين أن السبب مني، لست رجلا؟/

*** يخلط العامة بين العقم والضعف الجنسي، فالرجل العقيم ضعيف جنسيا بالضرورة وليس رجلا. رغم أن العلم يفصل بين الحالتين، لذلك لا يعترف الرجل الشرقي أنه عقيم حتى وإن تأكد ذلك، سيظل الأمر سرا وتلصق التهمة بالزوجة ومن واجبها ستر زوجها، وإلا عدت إمراة عاققة وغير صالحة)***

- لست رجلا؟

حينها ضربها ضربا همجيا ثم ألقاها على البلاط وراح يغتصبها صارخا:

- أنظري أأنت رجلا وسيد الرجال؟ لست عاقرا؟ هاه...؟! ثم من تزوج... هههه... من الذي زنى سابقا ولم يلد؟ أنا أم أنت؟

تناسى مغامراته الشاذة مع الماعز والخرفان و.... ثم مع سعدة العجوز المجنونة التي أتهكها من صغرها الصغار والكبار، المتربصون والمحترفون، المبتدؤون والمحنكون، العزّاب والمحصّنون بأفعالهم الشنيعة، والعجيب أنها لم

تصب بأي مرض تناسلي .

ظل يبحث عن فردوس لكن خاب ظنه، فلا أثر لها في أي ركن من المنزل، فأسرع لبيت والدها يدق الجرس بيد ويضرب الباب بيد أخرى، فتحت أمها باكية صرخت به؛

- أغرب عن وجهي... نقرت البنت نقرتها... هربت منك... لم يأبه لها وبدأ يبحث داخل البيت كالجنون ويصرخ:

- فردوس، فردوس.... وأمها تنتحب ثم قالت له:

- لا تتعب نفسك إتصلت بي من القاهرة وأخبرتني أنها ستتدبر أمرها وتسافر لكندا أو أي بلد آخر وأقسمت أنها لن تعود، لن تعود... حتى عند موتها ستوصي بحرق جثتها بدل إرسالها لتدفن هنا...

كانت في نفس الطائرة على نفس الكرسي... هل هي الصدفة؟ أم القدر احتجز لها هذا المقعد منذ الأزل في الوح

المحفوظ كما حدد خيط سيرها وخطط لمطباتها و....

خفض الجريدة وقال: من؟ المومياااا!؟!

نظرت إليه باستغراب ودهشة، لكن هذا الوجه الوسيم والهيئة الوقورة توحى لها بشيء ما... ثم ما فتئت أن عرفته زميلها في الإبتدائي أسامة الذي سافر إلى القاهرة وأصبح صحفيا وصاحب دار نشر، طالما مثلا معا مسرحية المومياء أثناء المدرسة، إذ لعبت هي مومياء كليوباترا، وهو كاهن المعبد.

قالت: المومياء تمردت، لم تعد بحاجة لكهان أو عشاق أو حراس... المومياء ستبعث ... ستبعث... ستعيش... ستحييا... ألم تحنط على أمل أن تبعث فيها الحياة من جديد يوما ما .. هاقد آن آوان بعثها... ستبعث ... ستبعث...

أنفجرت باكية ثم مسحت الدموع ورفعت رأسها إلى أعلى وأعلى كما كانت الطائرة ترتفع ضاربة بقوة لجاذبية عرض الماضي الغابر في أدغال التاريخ.

بكبرياء وثقة لم تدر مصدر تلك القوة والطاقة...
أكد جدها الفرعون الأعظم باركها أخيراً ومنحها قدرة
خارقة لإخضاع «التشي» لإرادتها... كما يخضع العلم
قوانين الطبيعة لإرادته...

• كلمة الصينية تستخدم لوصف «الطاقة الطبيعية
للكون». وهي أيضا طاقة روحانية أو خارقة للطبيعة،
وجزء من نمط اعتقاد فوق طبيعي ميتافيزيقي غير تجريبي.
ويعتقد أن «تشي» تتغلغل في كل الأشياء بما فيها الجسد
الآدمي.

نهاية الجزء الأول